
هنري تروايا
الغضبان
جولات
الأدب العالمي
دار
الشرق الجديد
بيروت

العصيان

جولات
في الأدب العالمي

هنري ثورو

العصيان

نقلها الى العربية
لجنة الترجمة في دار الشرق الجديد

دار
الشرق الجديد
بيروت

٢١

HENRY D. THOREAU

Selected Writings On Nature And Liberty

The Liberal Arts Press
New York 1952

لمحة عن المؤلف

● ثورو .. كاتب شاعر وفيلسوف أميركي ساخر عاش من عام ١٨١٧ ومات عام ١٨٦٢ :

● لم يفهم في عصره ... فقد بدت كتاباته وأفكاره غريبة شاذة عما عهده الناس ... فلم يستقبلوه كما يستحق ...

● والآن وبعد كل التطوّرات التي طرأت على المجتمع الانساني ونمو فكرة الديموقراطية والتحرر الخلقي والفلسفي بات أمرُ فهم هذا الفيلسوف أسهل ...

● لذلك جئنا بهذا الكتاب ليعرض موجزاً عن أفكار الرجل وفلسفته في الدين والحياة ... وبعض نماذج مقتصرة عن كتاباته ... ليطلع القارئ العربي على أفكار رجل غريب الاطوار ... نبذه مجتمعه أول الأمر ثم عاد ونشر آلاف النسخ من آرائه وكتاباته ... لعلّ في ذلك فائدة للقارئ الكريم.

المعرب

مقدمة

لمعظم الرجال العظام في العالم مثيل بسجلات التاريخ ؛ ربّما لم يكن هنري دافيد ثورو عظيماً لكنه كان يمتاز بشخصية فريدة من نوعها . ولا بدّ لكل من يتعرّف على شخصيته من خلال كتاباته إلاّ أن يخرج بنتيجة واحدة وهي انه فريد بين الرجال وليس له مثيل في أوروبا أو آسيا .

كان ثورو في حداثته معجباً برالف والدو امرسون ، أول مواطن من بلده ، إلا أننا إذا قارناه بدقة مع امرسون تثبت لنا خلافاتهما بصورة أوضح من نقاط انسجامهما . فقد كان ثورو أميركياً ، ولكن معظم فضائله الأميركية — وأهمها « الفردية » و « الانعزالية » — أصبحت حاجزاً لمواطنيه ، ليس بينهم وبين الآسيوين والاوروبيين

فحسب ، بل وبين بعضهم البعض . ومع ذلك فقد كان له أصدقاء كثيرون من مشاهير الرجال وغيرهم . وكان مغرماً بالحديث وبكتابة الرسائل ، لكنه لم يخلق لنفسه جيلاً من الاتباع والمعجبين . وكانت نظرته متفتحة واسعة للحياة ... فأسمع صوته للعالم أجمع .

أبصر هنري ثورو النور في اليوم الثاني عشر من تموز عام ١٨١٧ في مدينة كونكورد بولاية ماساشوسش حيث كان والده يملك معملاً صغيراً لصنع أقلام الرصاص بعد أن فشل في التجارة . كما كانت والدته تعمل في احدى البيوت لمساعدة والده على تغطية نفقات العائلة . وكان والده من أصل فرنسي ، أما والدته فكانت أميركية .

ولا نعرف عن أيام حداثته سوى ان عائلته انتقلت إلى بوسطن ثم عادت إلى مدينة كونكورد وأن ثورو كان يدرس في أكاديمية مدينة كونكورد استعداداً لدخول جامعة هارفرد .

كان ثورو في السادسة عشرة عندما التحق بجامعة هارفرد . وهناك أظهر مقدرة فائقة في فهم دروسه خصوصاً في اللغتين اللاتينية واليونانية ، ولوذعية في الشعر الانكليزي . وقد استطاع الثبات في هارفرد بفضل تضحية عائلته له وما كان يكسبه من التعليم في الصف ، والاعمال الاضافية التي كان يقوم بها ، والمساعدات التي كانت تمنحها هارفرد للمحتاجين من التلامذة .

ثم مارس ثورو مهنة التعليم في كونكورد بعد تخرجه من هارفرد عام ١٨٣٧ ولكنه استقال بعد بضعة أسابيع بعد أن رفض تنفيذ ما أمرته به ادارة المدرسة لانزال عقوبة بدنية في بعض التلامذة . وفي خريف تلك السنة قدم نفسه إلى امرسون الذي اشتهر بعد نشر كتابه الذي عالج فيه بعض أمور الطبيعة عام ١٨٣٦ . ومع ازدياد صداقتهما أعرب ثورو لصديقه عن طموحه في خوض عالم الأدب ، فنصحه امرسون بأن يبدأ بحفظ سجل لمذكراته . فعمل ثورو بنصيحة امرسون وعين الثاني والعشرين من تشرين الاول ١٨٣٧ للمباشرة بذلك .

وفي أوائل العام التالي وحّد الاخوان ثورو جهودهما وفتحا مدرسة خصوصية في كونكورد . وقد لاقت المدرسة نجاحاً باهراً نظراً للتدابير العصرية التي أدخلاها على نظامها ، لا سيما الغاء العقوبة البدنية . وكان لهذا التقارب الأخوي أثر كبير في اخراج ونشر أول كتاب لثورو عام ١٨٤٨ .

واظب الاثنان على عملهما إلى أن اضطرا لالغاء المدرسة بسبب انحراف صحة جون ، الأخ الأصغر . وبالنظر إلى ان ثورو كان لا يرغب بالعمل منفرداً فقد عاد يتقرب من امرسون على أمل مساعدته في كتاباته . وهكذا ذهب ثورو إلى بيت امرسون ليعيش ويعمل ... وكان عليه أيضاً أن يحرر من وقت لآخر ويقوم بمهام

الأمين العام للندوة المحلية .

كان امرسون يعتقد أن ثورو سيصبح شاعراً لما لاحظه فيه من النباهة والذكاء طوال فترة رعايته له وتقديم النصائح والارشادات . إلا أن ثورو تفوّق على معلّمه بسرعة . وقد كتب امرسون بعد عودتهما من إحدى النزهات الكثيرة التي كان يقوده فيها ثورو ويصف له الطبيعة فقال : « لقد كان يعرف المدينة كما يعرفها الثعلب أو العصفور إذ كان يسير في ممرات لا يعرفها غيره ويقودنا إلى مساكن الطيور أو إلى الأجمات النباتية وهو يعرف سلفاً بأنني لا أستطيع العثور عليها ثانية . »

داهمت المصيبة كل من امرسون وثورو بوفاة ابن الأول وشقيق الثاني . فاضطّر ثورو إلى السفر إلى نيويورك ليتولّى تعليم أبناء شقيق امرسون هناك . وذهب مزوداً بتوصيات من إمرسون وهوثورم إلى رؤساء التحرير والناشرين هناك . ولكن ثورو فشل هناك وعاد إلى كونكورد عام ١٨٤٥ بعد أن رفض عرضاً من صديق له للقيام برحلة عبر المحيط إلى أوروبا . وفي هذه المرة عاش في غرفة شيدها على أرض تخصّ إمرسون . وهنا كان اصدقاؤه يزورونه للتناقش معه حول الأمور الأدبية والفلسفية ... وهنا أيضاً أكمل مخطوطته « أسبوع على ضفاف نهري كونكورد ومريماك » التي نشرها عام ١٨٤٩ . ولكن الكتاب لم يلقَ الرواج المنتظر وأعيدت له معظم

نسخ الكتاب تقريباً ولكن هذا الفشل لم يكن ليؤثر على معنوياته أو ثقته بنفسه .

قام ثورو بتنقّلات ومغامرات كثيرة أهمها زيارته إلى ماينوودز حيث القي القبض عليه لأنه رفض أن يدفع أية ضريبة هناك لئلا يساهم في تمويل الحرب المكسيكية وإطالة عهد الاستعباد . وقد انعكس هذا التأثير في مقالته « العصيان المدني » التي نشرت في عام ١٨٤٩ أيضاً والتي ستطالعونها في هذا الكتاب . وقد أدهشت فكرة ثورو القائلة بأن أفضل وسيلة لمقاومة أية حكومة مستبدة التمنّع عن دفع الضرائب ، المهاتما غاندي عندما كان يتلقّى علومه في كمبردج . وما ان عاد المهاتما إلى الهند عام ١٩٢٤ حتى قام بحملة عنيفة لمقاومة الحكم البريطاني وأوعز إلى مواطنيه بالتوقّف عن دفع الضرائب .

وفي عام ١٨٤٧ عاد ثورو للعيش من جديد في بيت إمرسون ليبقى ظلّ الرجل مخيماً في البيت بعد سفر إمرسون إلى أوروبا . وهنا تعرضت صداقة الرجلين ، ثورو وإمرسون ، إلى نكسة بسبب التهمة التي وجهت إلى ثورو عن قيام علاقة غرامية بزوجة إمرسون الثانية .

وبعد أن غادر ثورو بيت إمرسون ، ذهب إلى بيت والديه والتزمه حتى أواخر حياته . وهنا قام ثورو على

الاعتناء بشقيقته ووالده ونظم معظم كتاباته . فنشر كتابه عن بحيرة « والدن » عام ١٨٥٤ ، وهي البحيرة التي اعتزل بقربها معلناً عصيانه على الحكومة ورفضه دفع الضرائب . وقبل اندلاع الحرب الأهلية في أميركا أخذ يهاجم تجارة الرقيق ويطالب بمنحهم حرياتهم إلى أن انحرفت صحته بعد أن أصيب بداء السل ، الذي فتك بأخته ... ودهمته المنية في السادس من أيار عام ١٨٦٢ .

من أشعاره

•

ربي انني لا أطلب منك سوى :
ان لا اخيب ظن نفسي بنفسي
وان اصل في أعمالي إلى أقصى القمم
التي أراها بعيني ،
ثم أطلب منك منحـــة أخرى :

لا تدع أصدقائي يعرفون ، مهما فكروا
كيف انك ميزتني وحبوتني

وكذلك

ان تجعل يدي بصلابة ايماني

وان أفعل أكثر ممّا أقول

وان لا تكشف أعمالي الوضيعه

واشعاري المعبرة انني ::

لم أعرف قصدك :: ولقد ضعت عن

تحديد غرضك !

العصيان المدني

أني أتقبّل هذا الشعار بكل اخلاص : « الحكومة الفضلى هي الحكومة التي تحكم أقل » وأود أن أرى الفكرة تتحقق بسرعة أكثر وبانتظام . وعندما يتحقّق ذلك فاني أعتقد بأن « الحكومة الأفضل هي التي لا تحكم أبداً » ، وتلك هي الحكومة التي يريدها الشعب عندما يتم استعداده لها . ولكن الحكومة المثلى ليست سوى أمنية ، فجميع الحكومات في الغالب ، وكلها في بعض الاحيان غير صالحة . والاعتراضات التي توجّه عادة ضدّ جيش عامل ، وما أكثرها وأثقلها ، يجوز أن توجّه في النهاية ضد حكومة عاملة . والجيش العامل ليس سوى ذراع الحكومة العاملة . كما ان الحكومة نفسها التي اختارها الشعب لتنفيذ إرادته ، معرضة للتعسف

والانحراف قبل أن يمارس الشعب ارادته بواسطتها . والدليل على ذلك حرب المكسيك التي ابتدعها أفراد قلائل استعملوا الحكومة أداة طيّعة في أيديهم لأن الشعب لا يوافق مبدئياً على هذا العمل .

فما هي هذه الحكومة الأميركية ؟ أليست هي تقليد بالرغم من حداثتها ... تجهد نفسها للنفاذ إلى قلب الاجيال القادمة ولكنها تخسر في كل لحظة شيئاً من كرامتها ؟ إنها تفتقر إلى حيوية وقوة رجل وحيد على قيد الحياة لأن رجلاً واحداً يستطيع أن يطوعها لارادته . غير انها بمثابة مدفع خشبي بنظر الشعب نفسه . ولكنه مدفع ضروري لأنه يجب أن يكون للشعب مشاكل ومعدات متشابكة يسمع عجيجها وضجيجها لكي يرضي فكرته عن الحكومة . وقد برهنت الحكومات كيف يمكن الزام الرجال ، بل وكيف يمكن ان يقيد الرجال أنفسهم بأنفسهم لمنافعهم الخاصة . ويجب أن نقر بأن هذا شيء ممتاز . ومع ذلك ، فاني لم أرَ هذه الحكومات قد اسهمت من تلقاء نفسها بأي مشروع سوى النشاط الذي مارسته للتملص من الاشتراك بالمشاريع . ولا تسمح بالحرية ، أو تترك الغرب ليهدأ . كما أنها لا تعلم أو ترشد . إن الصفات الفطرية في الشعب الأميركي هي التي حققت جميع ما تمّ الوصول إليه وكان بأمكانه أن يقوم بأكثر من ذلك لو لم تقف الحكومة حجر عثرة

في طريقه . إذ أن الحكومة وسيلة يستعملها الرجال لعرقلة مساعي الآخرين ونشاطهم ، كما ذكرت سابقاً . ولو لم تكن التجارة متعلقة بالمطاط المستورد من الهند ، لما استطاع اولئك تخطي العقبات التي يضعها المشترعون في طريقهم ، ولو أراد المرء أن يحكم على مثل هؤلاء الرجال على ضوء أعمالهم فقط دون الالتفات لنواياهم لوجدهم يستحقون العقاب الذي يستحقه اولئك الأشخاص الذين يضعون العصي في الدواليب بقصد الاذى . ليس إلا .

ولكي أكون منطقياً مع نفسي ومواطناً اميناً فانني لا أطلب في الحال الغاء الحكومة ، بل أطلب ان تمثلني حكومة أفضل . ومتى أفصح كل مواطن عن حقيقة رأيه بنوع الحكومة التي يحبذها ، فأن ذلك سيكون خطوة إلى الامام تجاه الحصول عليها .

وبعد كل هذا فان السبب الذي يسمح بموجبه للأكثرية أن تحكم عندما يكون الحكم في أيدي الشعب ، ويستمر حكمها طويلاً ، ليس لأن ذلك حق شرعي ولا بسبب أن هذا العمل أنسب شيء للأقلية ، بل لأنها ، أي الأكثرية ، أقوى ، كما أن الحكومة التي تستند إلى حكم الاكثرية في جميع الظروف لا يمكن الاعتقاد بأنها مرتكزة على العدالة مهما كان مفهوم العدالة عند معظم الرجال .

ألا يمكن أن يكون هناك حكومة لا تستند الأكثرية فيها في جميع قراراتها الصائبة والخاطئة إلاّ على صوت الضمير ؟ وحيث تقرر الأكثرية فقط تلك الامور التي تنطبق عليها صفة المناسبات ؟ وهل يجب على المواطن أن يتنازل عن ضميره لبرهة واحدة إلى المشترع ؟ فإذا كان الأمر كذلك فلماذا يملك كل رجل ضميراً إذاً ؟ في اعتقادي إنه يتوجّب علينا أن نكون رجالا قبل كل شيء ومن ثم رعايا . والغاية هي أن نحترم الحق قبل احترامنا للقانون . والالتزام الوحيد الذي لي ملء الحق بممارسته هو أن أفعل ما أعتقده صواباً . والحق يقال إن الشركات تفتقر إلى الضمير ، ولكن شراكة بين رجال ذوي ضمير يصح ان تسمّى شركة عندها ضمير . فالقانون لم يمنح مثقال ذرة من العدالة للرجال ، وحتى ، مع كل احترامهم للقانون نراهم يجعلون من أنفسهم يومياً عوامل مناوئة للعدالة . وان النتيجة المألوفة والطبيعية كلما انتهكت حرمة القانون هي انك ترى بعدها صفاً من الجنود والضباط يسيرون فوق التلال وفي الوديان بانتظام كلي إلى الحروب ضدّ إرادتهم ... نعم ، وضدّ شعورهم وضمائرهم ... الأمر الذي يجعل عليهم المشي صعباً للغاية ويجعل قلوبهم تخفق قهراً . انهم ولا شك يقدرون تفاهة العمل الذي سيقومون به ، لأنهم يفكرون من أجل السلام . والآن

فكر قليلاً وتصور مـاذا عساهم يكونون ؟ هـل هم رجال بالفعل أو حجارة متحركة ينقلها الرجال الغاشمون في الحكم حسبما يشاؤون ؟! زرْ معسكرات البحريـة فترَ بنفسك البحـارة الذين استطاعت الحكومة الأميركية أن تصنع ... وكيف تستطيع الحكومة أن تخلق الرجال بفنونها القائمة – وكأنها أشباح منتصبة تذكرنا بالإنسانية ، رجالاً مكفنين وهم أحياء ومطمورين سلفاً تحت السلاح ومصحوبين بعدة الجنازة .

إن معظمهم يخـدم الدولة هكذا : ليس بصفتهم بشراً بل كأنهم الآلات . ومـع ذلك فأنهم يشكلون أجهـزة الجيش العـامل ، والحرس الداخي والسّجانين والبوليس وغير ذلك . وليس لهم في معظم الحالات الحق بممارسة أي نوع من الرأي أو الشعور الخلقي ، ولكنهم يضعون أنفسهم على نفس المستوى مع الخشب والتراب والحجارة، ربما كان بالامـكان خلق رجال من الخشب يستطيعون خدمة ذات الاغراض والاهداف . كما انهم يقدرون كما تقدّر قيم الخيل والكلاب . ومع ذلك فان مثـل هؤلاء الرجال يعتبرون عادة مواطنين صالحين . أمـا الآخرين ، من أمثـال المشترعين ، والمحامين والوزراء وأصحاب الوظائف فأنهم يخدمون الدولة بعقولهم ، وبينما هم لا يعترفون بالفوارق الخلقية إلاّ نادراً فأنهم بذلك يخدمون الشيطان كما يخدمون الله ، مـن حيث لا

يقصدون .

وهناك قلة – مثل الابطال والوطنيين والشهداء والمصلين وما شابههم – فإنهم يخدمون الدولة بضمائرهم أيضاً ، ومع ذلك يعاملون كأعداء . إن فائدة الرجل العاقل تكمن في أنه رجل لا يرضخ لأن يكون مجرد دمية أو حجر لسدّ ثقب كي يمنع تسرب الهواء لكنه يترك الوظيفة لأهلها .

إن الذي يمنح نفسه كليّة إلى رفاقه يبدو لهم عقيماً وتافهاً ، ولكن الذي يعطيهم جزءاً من نفسه يبدو لهم خيّراً وانسانياً .

ما هو شعور الانسان تجاه هذه الحكومة الأميركية ؟ وأنا أجيب على ذلك بأن لا انسان يستطيع الانتساب لها دون أن يلحق به الخزي . كما انني لا أستطيع الاعتراف ولو لحظة واحدة بهذه المنظمة السياسية التي تدعى حكومتي والتي هي حكومة مستعبدة أيضاً .

جميع الرجال يعترفون بشرعية الثورة ، أي الحق يرفض الخضوع الى ، أو مقاومة أية حكومة عندما يصبح طغيانها لا يطاق وضعفها لا يُقوّم . ولكن الجميع يقرون بأن القضية ليست على هذا النحو الآن . لكن ذلك كان حسب اعتقادهم ، قابل للتطبيق في الثورة الكبرى عام ١٨٧٥ . إذ لو أن أحداً قال لي بأن هذه الحكومة غير صالحة لأنها تفرض الضرائب على بعض المنتوجات

الأجنبية المستوردة ، فان من المؤكّد أن لا أثر ضجة لذلك . لأن باستطاعتي العيش بدونها . جميع الآلات لها خاصة الاحتكاك وذلك مفيد جداً للتغلب على السيئات . وبأي حال فان من الخطر بمكان خلق ضجة حولها . ولكن عندما يتملك الاحتكاك بالآلة ، وتصبح وسائل الضغط والاكراه والسرقة عملاً منظّماً ، فاني انصحكم بأن تتخلوا عن مثل هذه الآلة . وبمعنى آخر عندما يكون سدس السكان الذين آلوا على أنفسهم حماية الحرية، عبيداً ، والدولة بأسرها يسوسها وتحتلها جيش أجنبي وتصبح خاضعة للنظام العسكري ، فانني أعتقد بأنه لن يمض طويل وقت على الرجال المخلصين لكي يتمرّدوا ويثوروا . والشيء الوحيد الذي يجعل هذا الواجب ملحّاً يكمن في أن الدولة المحكومة على هذه الصورة ليست لنا ، ولكن الجيش المهاجم فقط يكون جيشنا .

ونرى الفيلسوف وليام بالي ، الثقة في المسائل الأخلاقية يصف في احدى كتاباته بعنوان : « واجب الخضوع للحكومة المدنية » جميع الالتزامات المدنية بأنها ذرائع مؤقتة وذهب إلى القول : « طالما أن مصلحة المجتمع بأسره تتطلب ذلك ، وطالما انه لا يمكن مقاومة الحكومة القائمة أو تغيرها بدون أن يشكل ذلك عبئاً ثقيلاً على عاتق الرأي العام ، فان إرادة الله تقضي بأن

تطاع تلك الحكومة القائمة ... وإذا أخذ بهذا المبدأ يتضاءل معنى المقاومة لكل قضية عادلة إلى مقارنة بين الخطر والضرر من جهة ومدى الأمل بالنجاح لتقويم الاعوجاج من جهة أخرى » . ويقول عن هذا بأن على كل رجل أن يفترض ذلك لنفسه بنفسه . كما يبدو أن بالي لم يأخذ بعين الاعتبار تلك القضايا التي لا تنطبق عليها قاعدة الكفاءة التي توجب على المجموع كما توجب على الفرد أن يكون عادلاً مهما كان الثمن . لأنه إذا اغتصبت عوامة من شخص على وشك الغرق يجب عليّ أن أعيدها اليه لئلا أغرق أنا بالتالي . ولكن هذا مخالف لرأي الفيلسوف بالي لأن الذي يخلص نفسه بهذه الطريقة وفي مثل هذه الحالة يخسرها . اني ارى أن على الشعب الأميركي – أن يتوقف عن امتلاك العبيد وينهي الحرب مع المكسيك ولو يكلفه ذلك وجوده كشعب .

تلتقي الدول مع بالي في ما تمارسه من الاعمال ، ولكن هل هناك من يعتقد بأن ولاية ماساشوسش تفعل ما هو صواب تماماً تجاه الأزمة الحاضرة ؟

إن الذين يعارضون الاصلاح في ولاية ماساشوسش ليسوا مائة ألف سياسي في الجنوب ، ولكن المائة ألف تاجر ومزارع الذين يعيشون هناك والذين تهمهم مسائل التجارة والزراعة أكثر من اهتمامهم بالشؤون الانسانية

كما انهم ليسوا مستعدّين لتوفير العدالة للعبيد أو للمكسيك مهما كلف الثمن . أنا لا أنوي مخاصمة الأعداء البعيدين ولكن مع هؤلاء القريبين مني هنا الذين يتعاونون مع الساكنين بعيداً والذين بدونهم لا يستطيع الأبعدون ارتكاب الأذى . لقد تعودنا القول ان الرجال لا زالوا بحاجة إلى الاستعداد ... لكن سبل التحسين بطيئة لأن الأقلية ليست أذكى أو أفضل من الاكثرية . وليس مهمّاً أن يكون مثلك كثيرون من حيث الطيبة والعكس بالعكس . فهناك الالوف المؤلفة من البشر الذين يعارضون العبودية والحروب ، ومع ذلك لا يقومون بشيء عملي لوضع حدّ لها ، والأنكى من ذلك أنهم يتباهون بأنهم أبناء مخلصون لواشنطون وفرانكلين بينما يقضون أيامهم وهم يضعون أيديهم في جيوبهم ويتمتمون بأنهم لا يعرفون ماذا يفعلون ... ثم لا يفعلون شيئاً ... كما أنهم يؤثرون قراءة النشرات التجارية والاسعار بعد العشاء على قضية الحرية وربما يسقطون نياماً فوقها . وإذا سألتم عن ثمن الرجل المخلص الشريف فأنهم يتلعثمون ويتحسرون ويبتهلون أحياناً ، ولكنهم في الحقيقة لا يفعلون شيئاً له أثر . ثم ينتظرون من الآخرين تسوية الامور التي طالما اسفوا منها . وفي الغالب ، فأنهم يقدمون صوتاً بخساً ورصانة تافهة وايماناً بالله كيفما اتفق لهم ، فهناك تسعمائة وتسعة وتسعون نصيراً للفضيلة لكل رجل

فاضل . ولكنه أسهل للمرء أن يتعاطى مع المالك الحقيقي للشيء من أن يتعاطى مع حارس موءقت عليه .

جميع عمليات التصويت تشبه ألعاب القمار مع فارق خلقي بسيط مرتبط بها ، وهو التلاعب حول الصواب والخطأ مع بعض المسائل الخلقية ، كما ترافقها الرهانات غالباً . أما أخلاق المقترعين فلا تطالها المراهنة ، فأنا أطرح صوتي كما أعتقد صواباً ، ولكن في الواقع لا يهمني أن يسود الحق . فانني أترك ذلك للأكثرية كي تقرر . وحتى في حالة التصويت من أجل الحق فان ذلك لا يفيد شيئاً . إذ هو ليس إلاّ تعبيراً عن رغبتك للآخرين بأن الحق يجب أن يسود . فالرجل الحكيم لا يترك الحق ليسود تحت رحمة الحظ كما أنه لا يرضى بأن يسود بواسطة سلطة الأكثرية . إذ هناك مقدار ضئيل من الفضيلة والحق في أعمال جماهير الرجال . وعندما تصوت الأكثرية في النهاية لالغاء الرق تفعل ذلك اما لأنها تقف موقف اللامبالاة من قضية الرق أو لأنه لم يتبقّ من العبودية سوى أثر ضئيل لمحوه بأصواتهم . وهنا .. لا يبقى عبيد سواهم . فقط ذلك المرء الذي يستطيع أن يثبت حريته بصوته يستطيع ان يعجل بالغاء الرق .

كثيراً ما كنت أسمع عن اجتماع سيعقد في مدينة بلتيمور أو غيرها لاختيار مرشح للرئاسة ، ولكن ماذا

يعني ذلك بالنسبة إلى الاحرار والاذكياء والأشخاص المعتبرين طالما ان الجمع كله يتألف من رؤساء تحرير الجرائد والمجلات والساسة المحترفين ... وما هي قيمة القرار الذي سيتخذونه ؟ ألا نستطيع الاعتماد على أصوات بعض الشخصيات المستقلة برأيها ؟ أليس هناك الكثيرون ممن لا يحضرون مثل تلك الاجتماعات ؟ ولكن لا : فلقد وجدت أن الرجل المعتبر ، كما يسمونه ، ينحاز عن خطته ويدب اليأس من وطنه في قلبه ، بينما الحقيقة أن الوطن هو الذي يجب أن ييأس منه ، فيضطر إلى تبني وجهة نظر المرشح المختار بحجة انه لا يوجد غيره في الميدان ، وبهذا يثبت وجوده فقط لتبني أي غرض من اغراض الغوغائيين . ويفقد صوته كل قيمة ويصبح على مستوى صوت أي غريب ليس له مبدأ أو أي مواطن مأجور يمكن شراءه بأي ثمن . ذلك لأن الرجل يكون بالفعل رجلاً كما يقول جارين عندما لا يستطيع أحد أن يقصم عظمة ظهره .

احصائيات كلها مغلوطة ، فهي تؤكد ان السكان في ازدياد ، بينما الحقيقة اننا لا نجد رجلاً واحداً لكل ميل مربع من الارض . اليس في أميركا سياسة تستهوي الرجال القدوم والسكنى هنا ؟ فقد تقمصت شخصية الاميركي في شخصية شاذة — مثل ذلك الشخص الذي يعمل على تطوير جهاز قطعانه ويعرف بافتقاره إلى الذكاء وثقته

بنفسه - الرجل الذي أصبح همّه الاول ، منذ أن يولد إلى أن يموت ، أن يرى بيوت الاحسان بخير وان يسعى لجمع التبرعات للأرامل واليتامى قبل أن يضع على جسمه ثوب الرجولة ، وبكل اختصار ، فاني اعني انه يعيش على فتات المساعدات التي تقدّمها له شركات الضمان بعد أن تعده بأن تدفنه بكل وقار عندما يموت .

نعم ، ليس من واجبات الرجل ان يضحي بنفسه كلية لاقتلاع جذور الشرور لأنه ربما يكون منهمكاً بأمور أخرى ، إلا أن واجبه يقضي على الاقل ان ينفض يديه منها وينساها . وإذا كرست نفسي لبعض الأشغال والاهداف الأخرى فان من واجبي على الاقل أن لا ألاحقها من فوق أكتاف الآخرين . ان واجبي الأول ان أنزل عن اكتاف الآخرين لكي أتيح لهم فرصة السعي لأهدافهم هم أيضاً . هل هناك أفظع من هذا التناقض البغيض في حياتنا عندما تسمع جاراً لك يقول : « اود لو انهم يأمرونني بالتطوع لقمع حركة عصيان العبيد أو الهجوم على المكسيك » . ومع ذلك فان أمثال هؤلاء الرجال ، يقدمون بديلاً عن ذلك ، اما مباشرة بولائهم ، أو بصورة غير مباشرة بدراهمهم . يُمتدح الجندي الذي يرفض الأشتراك في حرب غاشمة من قبل اولئك الذين لا يتوانون عن دعم الحكومة الغاشمة التي تشعل الحرب ، ويمتدحه أيضاً

اولئك الذين يتجاهل الجندي العمل بمقراراتهم وبموجب سلطتهم كأن الدولة تتوب إلى درجة تجعلها تستأجر شخصاً ليجلدها بينما تواصل الاغراق في الذنوب والخطايا . وهكذا ، فاننا مضطرون باسم النظام والحكومة المدنية إلى أن ندين بالولاء ونؤازر سفالتنا وحقارتنا .

إن أفظع الذنوب وأكثرها شيوعاً تتطلب أخلص الفضائل المنزهة لمعاضدتها . وأقل زجر ولوم تتعرض له الخصائل الوطنية لا يتحمل عبئها سوى الشرفاء . اما اولئك الذين يزعمون بأنهم يعارضون صفة الحكومة وتدابيرها ، بينما هم يدينون لها بالولاء ويؤازرونها فأنهم بدون شك أخلص شركائها ويكونون بالتالي العقبة الكأداء في سبيل اصلاحها . انني استغرب طلب البعض إلى الدولة ان تحل الاتحاد وان تتجاهل رغبات الرئيس ، واود أن أسألهم لماذا لا يحلون الإتحاد بينهم وبين الدولة أولاً ويرفضون بالتالي دفع ما يترتب عليهم إلى الخزينة ؟ ولم لا يقفون من الدولة نفس الموقف الذي تقفه الدولة من الاتحاد ؟ أوليست هي الاسباب نفسها التي منعت الدولة من مقاومة الاتحاد تلك التي منعتهم من مقاومة الدولة ؟

كيف يستطيع الانسان أن يرحب برأي أو ينشرح له صدره ؟ وهل هناك أي متعة منه إذا كان يتصور بأنه مغموم ؟ ولو ان جارك اقتنص منك دولاراً واحداً ،

فان عاطفتك لن تهدأ طالما كنت تعرف بأنك خُدعت أو لمجرد أن تقول بأنك خُدعت كما انك ستثور حتى عند مطالبتك إياه ارجاع حقك اليك ، بل انك تتخذ اجراءات حاسمة للحصول عل المبلغ بكامله ولترى انه لن يغشك في المستقبل . العمل النابع من المبدأ والادراك بالحق وممارسته يغيّر الأمور والروابط ، ومثل هذا العمل بالضرورة عمل ثوروي لا يعترف بما كان أو بالأمر الواقع . ولا يفرق هذا العمل الكنيسة عن الدولة فحسب بل يفرق العائلات بل ويمزق وحدة الفرد إذ يفصل الروح الخبيثة فيه من الطاهرة .

القوانين الجائرة موجودة ، فكيف يجب أن نقف منها ؟ هل علينا أن نرضى بها وندعن لها أو نحاول تعديلها متظاهرين بالخضوع لها حتى يكتب لها النجاح ، أو نحاول تجاهلها والتعدّي عليها ؟ ان معظم الرجال الذين يخضعون حكومة كهذه يعتقدون أن عليهم الانتظار إلى أن يقنعوا الاكثرية بتعديلها . ويعتقدون أيضاً بأنهم إذا حاولوا التصدّي لها فان النتيجة ستكون أسوأ من الشر نفسه . ولكنها غلطة الحكومة نفسها إذا كان الدواء أسوأ من الداء . وذلك ما يجعلها سيئة . فلماذا لا تستطيع هي السعي والعمل للاصلاح ؟ لماذا لا ترعى الاقلية الواعية ؟ ولماذا لا ترفع صوتها وتقاوم قبل ان يطالها الأذى ؟ ثم لماذا لا تحثّ المواطنين لكي يكونوا على حذر ، فتعين

أخطاءها وتسعى لأن تتجنبها ؟ لماذا تصلب المسيح دائماً وتلعن كوبرينكوي ولوثر وتعلن أن واشنطون وفرانكلين كانوا ثوّاراً ؟

يعتقد المرء بأن تجاهل سلطة الحكومة معنوياً وعملياً كان السلاح الوحيد الذي لم تتصوره أية حكومة قط ، وإلاّ فلماذا لم تجد العقوبة المناسبة لمثل هذا الموقف بصورة قاطعة ؟ إذا رفض رجل ما أن يدفع للدولة أكثر من تسعة شلنات نظراً لأنه لا يملك أرضاً أو بيتاً يضعونه في السجن لمدة غير محددة في أي قانون ويبقى هنالك المدة التي تقرّرها الجهة التي أمرت بوضعه ، أما إذا اختلس شخص تسعمائة ضعف الشلنات التسع من صندوق الدولة، فأنه يعود حراً طليقاً بعد زمن قصير ؛

إذا كان الظلم جزءاً ضرورياً في جهاز الحكومة ... دعه يستمر ... ويستمر ... إلاّ انه سيندثر تدريجياً كما ان الجهاز نفسه سيبلى بكل تأكيد . إذا كان ما يسند الظلم ، رفاصاً أو حبلاً أو مرفقاً عندئذ يتوجب عليك أن تقدر فيما إذا كانت النتيجة ستؤول إلى اسوأ ، ولكن إذا كان الظلم بطبيعته يتطلب منك أن تكون عامل ظلم ضد الآخرين ... حينئذ ، أقول لك ... خالف القانون . واجعل حياتك عامل احتكاك مضاد لتوقيف الآلة . وأقل ما يتوجب علي عمله ومراقبته هو أن لا استسلم للخطأ الذي أمقته ؛

ولا أدري إذا كانت هناك طرق تتوخاها الدولة لمعالجة الشّر . فاذا وُجدت فانها تتطلب وقتاً طويلاً يفوق عمر الانسان . أما أنا فلديّ أمور أخرى تشغلني . فقد أتيت إلى هذا العالم لا لكي أجعله صالحاً للعيش ، بل لأعيش فيه ، أكان صالحاً أم طالحاً . فالانسان لا يستطيع ممارسة كل الأمور بل بعضها ، وأنظر إلى أنه لا يستطيع القيام بكل شيء فليس من الضرورة ان يقدم على عمل خاطئ . كما أن ليس من واجبي أن أتوسّل إلى الحاكم أو إلى المشترع أكثر مما يقضي عليهم الواجب بالتوسل إليّ ، وإذا لم يلبوا ندائي فلماذا يتوجّب عليّ أن ألبي نداءهم ؟ ولكن الدولة ، في هذه الحالة ، لم تجعل مخرجاً للهرب ، لأن دستورها هو الشّر بعينه . قد يبدو هذا القول فظّاً قاسياً وخروجاً عن المألوف . وهكذا يتغيّر كل شيء نحو الأفضل ، مثل الولادة والموت ، كلاهما يرسل في البدن قشعريرة .

أنا لا أتردّد أبداً بأن أقول لاولئك الذين يفاخرون بأنهم يكافحون لالغاء الرق ان يسحبوا مؤازرتهم لحكومة ماساشوسش فوراً ، أمعنوية كانت أم مادية ، وأن لا ينتظروا لكي يصبحوا أكثرية وبعد أن يعانوا من الحق الذي يسعون لتحقيقه بواسطتهم . ويكفي كما اعتقد أن يكون الله بجانبهم دونما حاجة لاحد سواه . وفوق ذلك

فان أي رجل يتفهم الحق أكثر من جاره يشكل أكثرية بذاتـه .

التقي والحكومة الاميركية ، أو ممثلتها ، حكومة الولاية ، وجهاً لوجه ، مرة واحدة في السنة لا أكثر وذلـك بشخص محصل الضرائب ، وهذه هي الحالة الوحيدة التي تجعلني التقي بها ... وعندئذ تكون أشبه بمن يقول لـي بصراحة « اعترف بي » ولكن من أبسط الامور في مثل هذه الشؤون أن أتنكر لها . ان جاري مُحصل الضرائب هو الشخص الوحيد الذي أتعامل معه ، لأني ، بعد كل ذلك أجد عليّ ان أتخاصم مع الرجال وليس مع المتـاع ، وهو بدوره قد اختار طوعاً ان يكون وكيلاً للحكومة . كيف يستطيع والحالة هذه ان يعرف نفسه ويعمل كما يليق بموظف الحكومة أن يعمل ، أو كانسان ، قبل أن يأخذ بعين الاعتبار ويقدر فيما إذا كان عليه ان يعـاملني بصفتي جاره الذي يحبني ويحترمني ... أقول هل يعاملني كجار وانسان لا يملك من متاع الدنيا شيئاً أو بصفتي معتوها ومخلاً بالأمن ، ويرى بعد ذلك فيما إذا كان يستطيع تذليل هذه العقبة بعد أن يقرن عمله بكلمة فظة أو بفكرة عنيفة . اني اعلم جيداً انه لو قُيّض لألف شخص أو مائة أو عشرة أستطيع تسميتهم ، أقول لو يوجد هناك رجل شريف واحد في ولاية ماساشوسش يعتق العبيد أو يرفض فكرة الاستعباد ، ويحررهم فعلاً من كل ما يشدهم اليه ،

فان هذا العمل سيكون بداية لالغاء الرق في أميركا ولو أدى ذلك الى سجنه . لأنه مهما بدت البداية تافهة وبسيطة فان ما يحدث مرة باتقان يستمر أبداً . لكننا نفضل معالجة هذه الامور بالكلام . الاصلاح يحفظ عدداً من الجرائد في خدمة الحكومة ، ولكنه لا يبقي رجلاً واحداً . ولو أن جاري الكريم سفير الدولة ضحى بأيامه لمعالجة قضية حقوق الانسان في المجلس دون ان يواجه تهديداً بوضعه في سجون كارولينا ، تلك الولاية التي تتوق الى دس جريمة الرق على شقيقتها بالرغم من انها في الوقت الحاضر تتذرع بأي عمل كان لتجعل منه أساساً للنزاع معها .. بيد ان جاري لو فعل كما أشرت سابقاً لاسقط المشروع الموضوع بكامله من حسابه .

كل حكومة تزج الابرياء في السجون تصبح الدولة نفسها سجناً لمثل أولئك الاشخاص . والمكان الوحيد الذي توفره اليوم ولاية ماساشوستس لأحرارها هو السجن ... والسجن فقط .. فتضعهم فيه بعد ان وضعوا انفسهم بسجن مبادئهم . هناك .. في السجن اذ يلتقي العبد الهارب والسجين المكسيكي والهندي فيتعهدون بشرفهم ان يمحوا الظلم الذي يحيق ببني جنسهم ... وذلك المكان الموحش حيث تضع الدولة أولئك الذين يناهضونها .. هو المكان الوحيد في دولة العبيد حيث يستطيع الرجل الحرّ ان يحتفظ بشرفه .. واذا اعتقد أحد بأن عنفوان المساجين سيتضاءل

أو ان أصواتهم لن تصل الى مسامع الدولة لتفضها أو فكر أنها تخلصت من أعدائها بوضعهم وراء الجدران .. فان مثل هذا الشخص لا يعرف الى أي مدى تتفوق الحقيقة على الضلال ولا يعرف الضراوة والعنف الذي يستطيع به من ذاق طعم الظلم والالم شخصياً ان يقاوم الاعتداء والضلال .

اطرح بصوتك في الصندوق ولا تحسبنّه مجرد قطعة تافهة من الورق ... ولكن ضمّنه عنفوانك . تبقى الاقلية مجردة من القوة طالما انها تخضع لرأي الاكثرية .. حتى انها تفقد صفة الاقلية ايضاً .. لكنها تصبح قوة لا تقهر اذا اندفعت بكل قواها . أما اذا كان الخيار بين أمرين : الاحتفاظ بجميع الاشخاص الشرفاء في السجن أو التخلّي عن الحروب وتجارة الرقيق ، فأن الدولة لن تتوانى لحظة في الاختيار . ولو ان ألف رجل تمنعوا عن دفع الضريبة هذه السنة فان ذلك ليس تمرداً أو تدبيراً لأراقة الدماء ، بل العار بأن يدفعوا الضريبة اذ تتمكن الدولة من استعمال العنف واراقة الدماء البريئة . هذا هو بالحقيقة التعبير الصحيح عن الثورة البيضاء ... اذا كانت ممكنة . أما اذا سألني الجابي أو أي موظف آخر ، كما سألني أحدهم مرة : « ولكن ماذا تريدني ان أفعل ؟ » فان جوابي له : « اذا كنت تريد حقاً ان تفعل شيئاً ... فما عليك سوى الاستقالة . » ذلك لأنه عندما تخسر الدولة ثقةالشعب وولاءه

ويستقيل الموظفون .. عندئذ تكون ثمرة الثورة قد أينعت، ولو افترضنا ان ذلك سوف يسبب اراقة الدماء ، لأنه بواسطة هذا الجرح تسيل فعلاً مياه رجولية الانسان وخلوده وتنزف دماؤه الى ان يقضي موتاً سرمدياً . وها أنا أرى هذه الدماء تسيل الآن ..

طالما أطلت التأمل في قضية سجن المعتدي بدلاً عن حجز بضائعه ، مع العلم بأن كليهما يخدمان نفس الهدف وذلك لأن الذين يجاهدون من أجل الحق هم بالتالي أخطر ما يمكن أن تجابهه دولة فاسدة لأنهم أقل عقاراً وثراء . والى هؤلاء لا تقدم الدولة سوى مقدار ضئيل من الخدمة ومن الطبيعي ان ينظروا الى الضريبة مهما كانت ضئيلة على انها عبء ثقيل خصوصاً اذا كانوا مضطرين للعمل بأيديهم من أجل الحصول عليها . ولكن اذا عاش أحد دون حاجة للمال فان الدولة نفسها تتردد بطلبه منه . أما الغني فانه يبيع نفسه دوماً الى الهيئة التي تجعله غنياً . وأقول بصورة عامة ... كلما زاد المال نقصت الفضيلة ، ذلك لأن المال يقف بين الرجل واغراضه ويساعده أحياناً على الحصول عليها وطبيعي ان يكون هذا الفوز خالياً من الفضيلة. وذلك ما يضع عدة أسئلة أمام الشخص الذي تفرض عليه الضريبة للاجابة عليها ، بينما السؤال العويص الجديد الذي سيواجهه هو : كيف سيصرف ذلك المال ؟ وهكذا نرى بأنه يستوحي كرامته من تحت قدميه . ففرص الحياة تتضاءل

الى أجزاء صغيرة جداً بينما تلك الاشياء التي نسميها «وسائل» تأخذ بالازدياد . ان أفضل شيء يستطيع الانسان أن يقوم به لصقل ثقافته عندما يصبح غنياً هو ان يسعى لتحقيق تلك المناهج التي كانت تخامره عندما كان فقيراً. لقد رد المسيح على الهيروديين بالنسبة الى أحوالهم ، قال لهم : « أروني ما الاتاوة ؟» فأخرج واحد منهم فلساً من جيبه وناوله اياه ، عندئذ التفت المسيح وقال لهم : « اذا كنتم تستعملون نقوداً تحمل صورة القيصر التي لها فضل ترويجها وجعلها ذات قيمة ، ذلك يعني ، اذا كنتم تنتسبون الى الدولة وتتمتعون بالفوائد التي تضفيها عليكم حكومة القيصر ، حينئذ ردّوا له من نفس المال ساعة يطلب منكم ذلك .. واعطوا ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله » . وهكذا أوقعهم في حيرة من أمرهم لأنهم كانوا لا يرغبون بالمعرفة .

عندما كنت أتحدّث مع أكثر الجيران حرية ، كنت أدرك سلفاً مهما قالوا عن أهمية وخطورة السؤال ومدى تقديرهم للسلامة العامة ، انهم باختصار يخشون الاستغناء عن حماية الحكومة الحاضرة لهم .. وفوق ذلك كانوا يخشون على ممتلكاتهم وافراد عائلاتهم اذا شقوا عصا الطاعة وتمردوا عليها . أما من جهتي فاني لا أحب حتى مجرد التفكير بالاعتماد على حماية الدولة لي . ولكن اذا رفضت الاعتراف بسلطة الدولة ، عندما تبرز لي وثيقة ضريبة الدخل

فأنها تلجأ في الحال الى مصادرة أملاكي وهكذا تكدر العيش عليّ وعلى ذريّتي إلى ما لا نهاية . وهذا أمر شاق يجعل من الصعب على الانسان ان يحيا بالأمان والبحبوحة . كما يجعل أمر تجميع الاموال من جديد صعباً للغاية . اذ يجعل المرء مرغماً عل الاستئجار في مكان آخر أو اغتصاب أرض ما يزرعها ويأكل منتوجها فوراً . ان على الانسان ان يعيش ضمن حدود امكانياته ويعتمد على نفسه وألايغرق نفسه بالمشاكل . ويستطيع الانسان ان يصبح غنياً في تركيا اذا جعل من نفسه مواطناً صالحاً للحكومة التركية . لقد قال كونفوشيوس : « اذا ساد في الدولة حكم القانون والمنطق يصبح الفقر والبؤس من الامور المخجلة .. أما اذا حكمت الدولة بدونهما فيصبح الغنى والشرف مدعاة للخجل » . ولكن أنا ... حتى أريد ان تشملني حكومة ماساشوستس بحمايتها وتمتد هذه الحماية الى أي مرفأ في جنوبي البلاد حيث تكون حريتي مهددة بالخطر ، والى أن أريد بناء بيت لي بواسطة وسائل شريفة فأن بوسعي ان أتحمل عبء ما يترتب علي من رفض تقديم الولاء لحكومة ماساشوستس والاعتراف بحقهاعلى حياتي وممتلكاتي. وذلك بأي حال يجعل تأثير عقوبة العصيان عليّ أقل من عقوبة الاذعان .

منذ بضع سنين مضت قابلتني الدولة بالنيابة عن الكنيسة وأمرتني بدفع مبلغ ما لمساعدة أحد رجال الكهنوت الذي

سبق ان كان أبي يصغي الى مواعظه .. ولكن أنا لم أفعل ذلك أبداً . وقالت لي الحكومة : « ادفع ، أو اننا سنزج بك في السجن » .. فرفضت ان أساهم بشيء .. ولكن من سوء الحظ .. قام به شخص آخر ووجد من الأنسب وجوب دفع المساعدة .. ودفع . انا لا أستيطع ان أجد سبباً يحتم على مدير المدرسة أن يدفع مساعدة للكاهن ولا يساعد الكاهن ذلك المدير ... ولكن عفواً .. فلم أكن أنا رئيساً لمدرسة الحكومة لكنني كنت أعول نفسي من التبرعات الاختيارية . كذلك لم أر سبباً لماذا لا تقدم الندوة وثائق دخلها وتجعل الدولة دعامة لمطالبها شأنها في ذلك شأن الكنيسة . ولكن كيفما كان ، ونزولاً عند طلب بعض الاصدقاء تكرمت بأن أقوم بكتابة مثل هذا البيان بخطي :

« ليعلم كل من يطلع على هذه الوثيقة من الرجال بأنني نا ... هنري ثورو لا أرغب ان يعتبرني أحد عضواً في أية مؤسسة اجتماعية لم أنضم اليها ... » ومن ثم سلمت هذه الوثيقة الى كاتب العدل ولا زالت محفوظة لديه .. ولما علمت الدولة بأنني لا أرغب بعد الآن باعتباري عضواً ، في تلك الكنيسة ، توقفت عندئذ عن توجيه مثل ذلك الطلب اليّ ، الا أنها ادعت بأنها مضطرة للتقيد بمزاعمها الاساسية السابقة ولو كان بوسعي تسميتها — الجمعيات — لوقعت على بيان مبسط أعلن فيه انسحابي من جميع الجمعيات التي لم أوقع على وثيقة انضمامي فيها ولكنني لم أستطع العثور

على لائحة كاملة باسمائها .

لم أدفع ضريبة انتخاب لمدة ست سنوات وقد قضيت ليلة واحدة في السجن بسبب ذلك . ولما وقفت وراء الجدران الصامتة والأبواب الحديدية لم أستطع ان أكتم أنفاسي من غباوة تلك الهيئة .. التي يسمونها دولة .. بعد ان عاملتني كما لو لم أكن لحماً وعظماً ودماً . وزادت دهشتي لما خطر ببالي فيما اذا كانت الدولة لا تستنتج في النهاية بأن ما فعلته نحوي كان أقصى ما تستطيعه نحوي وأفضل ما يمكنها ان تعاملني به . وأيقنت بنفسي انه اذا كانت الجدران تحول بيني وبين مواطني ، فقد كان هناك جدار أقوى يجب عليهم ان يتخطوه أو يحطموه قبل ان يشعروا بأنهم أحرار مثلي . أما من جهتي فلم أكن شاعراً بأنني محبوس ، وبدت الجدران في نظري كتلاً تافهة من الطين والحجارة. وشعرت ساعتئذ كما لو انني كنت الوحيد بين المواطنين الذي دفع الضريبة المتوجبة عليه . ولكن أولياء السجن كانوا يجهلون كيف يعاملونني فتصرفوا كالأنذال . اذ كانوا يتعثرون في تهديدهم واطرائهم لأنهم كانوا يعتقدون بأن رغبتي الاساسية كانت تنحصر بالوقوف مسنداً ظهري الى ذلك الحائط . ازاء هذه الحالة كنت ابتسم كلما اراهم يجهدون أنفسهم في اغلاق الباب على أفكاري وتأملاتي . وبينما كانوا يجدون أنفسهم عاجزين عن الوصول إليّ صمموا على معاقبة جسمي .. كما يفعل الأولاد تماماً عندما يعجزون

عن التطاول على من يحقدون تراهم يعتدون على كلبه .
ذلك ما جعلني أعتقد بأن الدولة تتعثر في خطاها وكانت جبانة مترددة مثل المرأة التي تجلس وحيدة مع ملاعقها الفضية .. وعرفت ان الدولة لا تستطيع ان تميز بين أعدائها وأصدقائها وذلك ما جعلني أفقد احترامي واعتباري لها .. فأشفقت عليها .

وهكذا كانت الدولة .. لا تواجه شعور الانسان وذكاءه أو خلقه بل تكتفي بالتعرض لجسده . وذلك لأنها ليست مسلحة بذكاء خارق أو امانة حميدة لكنها تفاخر بجبروتها وانا بطبيعتي أمقت الاكراه وافضل الموت دونه. اذاًفدعونا نرى من هو الاقوى . ترى أية قوة تكمن في الجماهير ؟ فليس من يستطيع اكراهي سوى الذين يطيعون قانوناً أرقى من القانون الذي أخضع له . انهم يحاولون الضغط عليّ لكي يجعلوني مثلهم ولكنني لم أسمع بوجود رجال أرغموا على العيش بهذه الطريقة أو تلك نزولاً عند رغبة زمرة من الرجال . اذ عندما أواجه حكومة تخيرني بين حياتي أو مالي .. هل يبقى أمامي مجال للتردد بتسليمهاذلك المال ؟ ربما كانت تشعر بضيق عظيم جعلهاتفقد صوابهاولا تعلم ماذا تفعل . لذلك فانها تريد ان تساعد نفسها وتفعل كما أفعل أنا تماماً . أنا لستمسؤولاً عن نجاح عجلة المجتمع فلست ابن المهندس . لكنني أعتقد أنه اذا سقطت حبة بلوط وحبة كستناء جنباً الى جنب ، لا تبقى الواحدةمنهما

جامدة حتى تفسح المجال أمام الاخرى ، لكنهما يخضعان للقوانين المتعلقة بهما ويأخذان بالنمو والازدهار بأقصى جهدهما الى أن تتمكّن واحدة منهما من حجب الأخرى وتحطيمها . لأنه ان لم تستطع الغرسة ان تعيش وفقاً لناموسها الطبيعي تموت ، وهكذا الانسان .

كانت الليلة التي قضيتها في السجن حدثاً جديداً ورائعاً بالنسبة لي . وعندما دخلت على المساجين وجدتهم يتحادثون خارجاً ويستنشقون النسيم الذي كان يصل اليهم من الممر . ولكن السجان بادرهم بقوله : « هيا بنا .. فقد حان وقت القفل » . وهكذا تفرّقوا وسمعت وقع أقدامهم تردّد صداها في أجواء الممرات الخاوية . عندئذ عرفني السجان على زميلي في الغرفة ولمّح لي بأنه شاب من الطراز الاول وذكي . وعندما أغلق الباب أرشدني الى المكان الذي يجب أن أعلق قبعتي عليه وشرح لي كيف كان يدبر شؤونه . أما غرف السجن فقد كانت تطرش بالأبيض مرّة في الشهر ، ووجدت غرفتي أكثر الغرف نظافة وبياضاً .. تحتوي على أثاث بسيط .. كما انني اعتقد بأن السجن كان أكثر البيوت نظافة في المدينة . ثم أراد السجين ان يعرف من أين أتيت وسبب وجودي في السجن .. ولما انتهيت من روايتي جاء دوري لأسأله عن سبب وجوده في السجن معتقداً أنه أمين صادق .. فقال : « آه اتهموني بحرق مخزن ما ... ولكنني لم أفعل ذلك أبداً .. » وكان أقصى ما استطعت ان

أتصوره هو انه ربما ذهب لينام في مخزن ما وهو بحالة السكر الشديد .. وهنالك أشعل غليونه .. وهكذا احترق المخزن بكل بساطة . وكان قد مضى عليه ثلاثة أشهر في السجن بانتظار المحاكمة ، وربما كان عليه ان ينتظر مدة أطول .. ولكنه تعود الحياة وكان يشعر بالسرور اذ وجد مكاناً للنوم دون مقابل وخصوصاً بأنه كان يعامل معاملة حسنة ؛

كان يحتل نافذة وأحتلّ أنا الأخرى .. ورأيت انه كلما طالت اقامتي هنا ازدادت رغبتي بالتطلع من النافذة ؛ وفي مدة قصيرة طالعت جميع المقالات الدينية التي تركتها هنا وتفحصت الاماكن التي فر منها المساجين ورأيت قضبان الحديد التي قطعوها بالمناشير وسمعت تاريخ معظم النزلاء في السجن .. وذلك لأنني وجدت أن هنا تاريخاً وأحاديث لم تذع أو تنشر وراء الجدران . وربما كان هذا المكان هو الوحيد من نوعه في المدينة حيث تنظم الاشعار والعقائد لتطبع بعد ذلك في شكل نشرات دورية دون ان تذاع وقد اطلعت على لوائح طويلة من الشعر المنظوم الذي كتبه شبان بعد ان اكتشف أمر محاولتهم للهرب ، الا انهم كانوا يثأرون لنفسهم بانشادها .

وأخيراً وثق مني زميلي ودلني على فراشي وترك لي الحرية لاطفاء القنديل .

شعرت أثناء وجودي في السجن وكأنني كنت في رحلة

طويلة الى بلد بعيدة . وشعرت انني أسمع صوت دقات ساعة المدينة لأول مرة وكذلك جلبة الاصوات في ساحاتها وذلك لأننا كنا ننام والنوافذ مشرّعة . وكنت أتصور بأننا نعيش في القرون الوسطى وأخذت أشباح الفوارس والاشباح تمر في مخيلتي . واتصور انني أسمع أصوات السكان وهم يمرون في الشوارع ، ورحت أراقب كل ما كان يحدث ويقال في مطبخ البيت المقابل الامر الذي كان بمثابة تجربة جديدة ونادرة لي . غير انه كانت أقرب ما يمكنني مشاهدته من معالم القرية . وكنت أشعر انني في داخله . عندئذ بدأت أفهم شيئاً عن طبيعة السكان .

تناولنا الفطور في الصباح من خلال ثقب في الباب وكان الطعام موضوعاً في وعاء مستطيل من التنك يضم بعض الحلوى وقطع من الخبز الاسمر مع ملعقة من الحديد وعندما عادوا لجمع الاوعية الفارغة احمرّت خدودي من الخجل لاعادة ما تبقى عني من الخبز ولكن زميلي انتشلها وقال بأنه من الحكمة ان أحتفظ بها للغداء أو العشاء .ثم دُعي زميلي فوراً للخروج حتى يقوم بقطع الأعشاب في الحقول المجاورة .. وكان يذهب هناك يومياً ليعود عند الظهيرة وهكذا ودعني قائلاً بأنه يشك في ان يراني من جديد .

عندما خرجت من السجن بعد ان تدخل شخص من معارفي دفع الضريبة عني ولم تكن ثمة تغيرات كبيرة قد

حدثت ومع ذلك فقد شاهدت عيناي أن تغيراً قد طرأ على المكان ـ المدينة والحكومة والدولة ـ يفوق ما يمكن ان يحدث في مثل ذلك الوقت القصير . وأصبحت أرى بوضوح أكثر ماذا يحدث في الولاية التي أعيش فيها . ولاحظت بالتالي إلى أي حد يمكن الركون الى الناس الذين أعيش بينهم كجيران مخلصين وأصدقاء أوفياء .. ورأيت ان صداقتهم تشبه سحابة الصيف عن قريب تنقشع .. وعرفت انهم لا يزالون بعيدين جداً عن التفكير بالحق وتأكدت من البون الشاسع الذي يباعد بيني وبينهم لحماقتهم وكثرة أهوائهم وتحاملهم .. فما زالوا لا يعرضون أنفسهم لأية مسؤولية في تضحياتهم من أجل الانسانية .. وفوق ذلك لم أجدهم شرفاء كما يجب وان كانوا يعاملون اللصوص كما يعاملونهم .. وكانوا يأملون بتطبيق بعض العادات والصلوات والسير في خط مستقيم معين من آن لآخر ، لينقذوا أرواحهم. ربما كان حكمي هذا على جيراني قاسياً فظاً غير انني أعتقد ان الكثيرين منهم يجهلون مقدار التقارب الذي تبدو عليه حياتهم واحوالهم من الحياة السائدة في سجن قريتهم .

جرت العادة في قريتنا ان يحيي المعارف صديقهم الفقير المديون عندما يخرج من السجن فيشبكون أصابعهم للدلالة على شكل شبابيك السجن الحديدية ويقولون : « كيف الحال ؟» ولكن جيراني لم يفعلوا هكذا .. غير انهم تطلعوا الي أولاً ثم أخذوا يتطلعون الى بعضهم البعض كما لو

كنت عائداً من رحلة طويلة . فقد ساقوني الى السجن بينما كنت ذاهباً لتصليح حذائي عند الاسكافي . وعندما أخلوا سبيلي في الصباح ذهبت فوراً لانهاءمهمتي ووضعت حذائي في قدمي ثم التحقت بزمرة من العُجّز ذاهبين لاقتطاف التوت فلم يرق لهم أن يضعوا زمام أمرهم تحت قيادتي.. فتركتهم ، وبعد نصف ساعة وجدت نفسي في حقل لأشجار التوت يقع على قمة أعلى تلة من تلالنا العالية .. وعندئذ غابت عن مخيلتي صورة الدولة .

تلك هي القصة الكاملة للمدة التي قضيتها في السجن د

لم أكن أبداً أرفض دفع ضريبة الطريق والسبب في ذلك انني أرغب بأن أكون جاراً صالحاً بقدر رغبتي بأن أكون مواطناً صالحاً ، أما موازراتي للمدارس فقد كنت أقوم الآن بقسطي نحو تثقيف اخواني المواطنين . ولم يكن رفضي لدفع ضريبة الدخل محصوراً بموضوع معين . وكل ما في الأمر انني ارفض منح ولائي للدولة وأقف بعيداً عنها ولا يهمني معرفة الطريقة التي يصرف بها الدولار الذيأدفعه لو أستطيع ذلك والى ان أرى بأنه لا يستعمل لشراءرجل أو غدارة لاطلاق النار منها .. الدولار بريء .. ولكن انا يهمني ان أتتبع الخطى لرؤية نتيجة ولائي . الحقيقة هي انني أعلنت الحرب على الدولة ومع ذلك فانني أسعى بكل وسيلة ممكنة للاستفادة منها كماهو الحال في مثل هذه الحالات.

اذا دفع عني الآخرون الضريبة المطلوبة مني بدافع عطف

منهم على الدولة انما يفعلون مثلما فعلوا في قضيتهم الخاصة أو بالأحرى فانهم يغذون الظلم الى درجة أكبر مما تتطلبها الدولة نفسها. أما اذا دفعوا الضريبة بوحي منهم لشعورهم الخاطىء نحو الفرد الذي فرضت عليه الضريبة وسعياً منهم لانقاذ ممتلكاته والحؤول دون ادخاله السجن ، يفعلون ذلك لأنهم تجاهلوا جانب الحكومة في تقدير مدى ما يسمحون لشعورهم الشخصي بالتدخل في شؤون المنافع العامة .

هذا هو موقفي اذاً في الوقت الحاضر . ولكن الانسان لا يستطيع ان يكون حذراً للغاية في مثل هذه الحالة لئلا يوصف عمله بالمكابرة أو عدم الاعتبار لآراء الآخرين : دع الانسان اذاً يفعل ما يتعلق به شخصياً وفي الوقت المرهون بعمل كهذا العمل .

اني أفكر أحياناً : « هذا شعب طيب انه فقط يجهل ما يفعل فلو كان يعرف لفعل أفضل ، فلماذا تسيء الى جيرانك وترغمهم على عمل ما لا يقصدون ؟ ولكني أعود الى التفكير من جديد : « ان هذا ليس سبباً لأن أفعل مثلما يفعلون أو ان أستسيغ للآخرين ان يعانوا ألماً أفظع ومن نوع مختلف » . ثم أعود لأقول لنفسي أحياناً: « عندما يطلب عدة ملايين من البشر بضع شلنات ، بدون حماس أو ضغينة أو دافع شخصي من أي نوع ولا تستطيع رفض أو تغيير طلبهم ولا أن تستنجد بملايين غيرهم من البشر ، فلماذا تعرض نفسك لطغيان هذه القوة الجامحة ؟

فانك لا تستطيع مقاومة البرد والجوع والرياح والامواج، فلماذا لا تخضع بسهولة لمثل هذه الطلبات الصغيرة . فذلك لا يعرض رأسك للنار » ولكن بالنسبة الي ، انني لاأعتبر ذلك قوة قاهرة تماماً ، انما قوة بشرية انسانية واعتبر ان هناك روابط تشدني الى هؤلاء الملايين كما تشدني الى عدة ملايين غيرهم فأرى ان الاستغاثة ممكنة ، أو بالاستغاثة بخالقهم ثم منهم والى أنفسهم . ولكنني اذ وضعت رأسي عمداً في النار .. لا يبقى أمامي مجال للاستغاثة بالنار أو بصانع النار .. ولا يبقى عليّ سوى توجيه اللوم لنفسي : اما اذا استطعت ان أقنع نفسي بأني أملك الحق بأن أقبل الناس كما هم وان أعاملهم وفقاً لذلك وليس كما أرغب أو انتظر ان اراهم عليه أكون ساعتئذ كالمسلم الطيب أو المستسلم للقدر يرضى بالأمور كما هي ويقول تلك هي مشيئة الله . وبالاضافة الى ذلك هناك فرق بين مقاومة هذا الشيء وبين مقاومة قوة طبيعية قاهرة ذلك لأنني استطيع مقاومة هذا وترك بعض التأثير عليه ولكنني لا أستطيع ان أتوقع مثل أورفيوس تغيير طبيعة الصخور والاشجار والحيوانات.

لا أودّ التخاصم مع أي انسان أو شعب . أو ان أقطع شعرة معاوية أو ان أميز نفسي أو أن أضع نفسي في مرتبة أفضل من جيراني . غير انني أبحث عن عذر لنفسي لكي تخضع على أساسه لقوانين الدولة . وأراني شديد الرغبة بالامتثال لها . وفي كل سنة عندما يحضر جابي الضرائب

أجد نفسي مرغماً على اعادة النظر في وضع حكومة الولاية والاشياء التي نفذتها ونفسية الشعب سعياً وراء ايجاد مبرر للانصياع .

علينا ان نعطف على وطننا كعطفنا على أقاربنا ...
واذا صدف وتقاربنا في أي وقت ...
فان حبنا وجهدنا لمنع حدوث ذلك شرف ...
يجب ان نحترم الاعمال ونلقن أرواحنا ...
جوهر الضمير والدين ...
وليس رغبة الحكم أو المنفعة ...

أنا أعتقد بأنه سيكون بوسع الدولة أن تستولي على جميع أعمالي وتنتزعها من متناول يدي وعندئذ أصبح في وضع ليس أفضل من وضع أي من زملائي المواطنين . واذا تطلعنا الى الدستور من نقطة أدنى نجده ، مع جميع الأخطاء التي يتضمنها جيداً جداً ، وكذلك القانون والمحاكم أمور معتبرة جداً ، حتى هذه الولاية والحكومة الاميركية هذه هي ، من عدة وجوه محترمة جداً وتمتاز بأشياء كثيرة نادرة تشكر عليها لا سيما تلك الاشياء التي وصفها الكثيرون ولكن اذا تطلعنا اليها من مركز أعلى قليلاً نجدها تماماً كما وصفتها ، واذا تطلعنا اليها من أعلى وأعلى .. من يستطيع بعدها ان يصفها أو يقول بأنها تستحق النظر أو التفكير

فيها على الاطلاق ؟

ان موضع الحكومة لا يهمني كثيراً ولن أمنحها قدراً كبيراً من تفكيري . ذلك لأني لا أعيش تحت سلطة الحكومة الا لحظات .. واذا كان الرجل حراً برأيه ورغبته وخياله .. تلك الأمور التي يبدو بأنها تدوم طويلاً ..فان الحكام الجهلة أو المصلحين يعجزون عن التشويش عليه .

أعلم بأن معظم الرجال يفكرون بعكس ما أفكر به أما أولئك الذين يكرسون حياتهم بحكم مهنتهم للدراسة هذه الامور أو ما يشابهها فلا يفرحني أبداً . أما رجال الدولة والمشترعين الذين يتظاهرون بالتمسك بالشرعية ... يلزمون أنفسهم بها جهاراً نهاراً ، ويتكلمون عن المجتمع المنظور دون ان يجدوا مكاناً غيره للاستقرار ربما كانوا من الرجال الذين يتحلون بالتجارب والتبصر وابتكروا بدون شك أساليب حاذقة ومفيدة يستحقون عليها ان نشكرهم من صميم قلوبنا ، ولكن ذكاءهم كله وفائدتهم تنحصر ضمن حدود ضيقة معينة . كذلك فانهم دائبون على ان يتجاهلوا كون العالم لا يخضع لاية سياسة أو قانون . إن وبستر لا يراوغ الحكومة ابداً وهكذا فانه لا يستطيع ان يتكلم عنها بثقة . ان كلماته تفيض بالحكمة الى أولئك المشترعين الذين لا يفكرون بادخال أي اصلاح ضروري على الحكومة الحاضرة ، ولكنه أمام المفكرين أو أولئك الذين يشترعون

في كل الازمنة ، لم يتطرق الى هذا الموضوع مطلقاً . ذلك لأنني أعرف ان باستطاعة الذين يمتازون بأفكار حكيمة ونظرة ثاقبة في هذا المضمار أن يكتشفوا في الحال مدى طاقته العقلية ومقدار كرامته . ومع ذلك فلو قارنا شخصيته مع معظم المصلحين المحترفين أو مع السياسيين ، بوجه عام وكل ما ينطقون به من الحكمة والبلاغة لوجدنا ان شعوره وكلماته أكثر قيمة من غيرها ولا يسعنا الا أن نشكر السماء على هذه المنة . ونجد بالمقارنة أيضاً انه يبدو دائماً قوياً ومبدعاً وفوق ذلك عملياً . ومع هذا ، فان اصالته ظلت بعيدة عن الحكمة. وربما يصح تسميتها « تبصراً » . ذلك لأن الحق الذي يدافع عنه المحامي ليس بالضرورة حقاً لكنه نوع من الرصانة أو الاهلية الراسخة . الحقيقة تنسجم دائماً مع ذاتها وليست متصلة مباشرة بموضوع العدالة . ويستحق وبستر ان نسميّه كما جرت العادة على تسميته « حامياً للدستور » . اذ لا يطالنا منه حقاً أية نكبات سوى تلك التي تتعلق بالدفاع . وهو ليس قائداً بل تابعاً . وقواده هم رجال ثورة ١٨٨٧ . وعليه نراه يقول : « لم أبذل أي جهد ولا أرتئي بذل أي جهد ، كما انني لا أؤيد القيام بأي جهد لعرقلة التنظيم الذي تمّ أساساً ، ذلك التنظيم الذي حقق وحدة جميع الولايات المختلفة » . أما عن رأيه بشرعية الدستور وتثبيت الرق فيه فانه يقول : « ذلك كان جزءاً من المعاهدة الاساسية ويجب ان يبقى » ورغماً من ذكائه ومقدرته

الخاصة فأنه لا يستطيع على اظهار الحقيقة مجردة من جميع المؤثرات السياسية وينظر اليها كما يراها ويطبقها المثقفون . ماذا ينبغي مثلاً على جهاز هنا في أميركا أن يفعل بالنسبة الى تجارة الرقيق بقصد ادخال سنة جديدة على جهاز الخدمات الاجتماعية ، ولكنهم يقولون : « ان طريقة تنظيم تجارة الرقيق في الولايات التي تمارس هذه التجارة لأمر متروك لتلك الحكومات .. وهي تنظمها وفقاً لأهواء الحكام الخاصة وتبعاً لمسؤوليتهم نحو ناخبيهم والقوانين العامة المتعلقة بالملكية والانسانية والعدالة نحو الله. وليس للجمعيات التي تشكلت في الاماكن الاخرى بدافع من الشعور الانساني أو أي دافع آخر ... علاقة في هذا الأمر . وعلى كل حال فهي لم تحظ بتأيدي لها ، ولن تحظى أبداً .

ان أولئك الذين لم ينهلوا الحكمةمن منابعها والذين ضلوا طريقهم في سيرهم نحو الحقيقة نراهم راسخين في موقفهم بجانب التوراة والدستور وينهلون منهما ما يروق لهم من الاجلال والاذلال ، ولكن الذين يتطلعون حيث تنضح آثار الحكمة في هذه البحيرة أو الحوض ، يحزمون أمرهم من جديد ويتابعون مسيرهم باتجاه ينبوعها الأصيل .

لم يظهر في أميركا رجل لوذعي في علوم التشريح . كما ان مثل هذا الرجل قلة في تاريخ العالم . الا ان هناك خطباء وسياسيين وبلغاء يعدون بالألوف ، ولكن القادرمنهم

على وضع حد للمشاكل المعقدة السائدة اليوم لم يفتح فمه بعد .. لأنه لم يخلق بعد . نحن نعشق البلاغة لذاتها وليس من أجل الحقيقة التي تنوه عنها أو لأية بطولة توحي بها. انهم يفتقرون الى العبقرية والموهبة لمعالجة مشاكل الضريبة والمال والتجارة والصناعة والزراعة . واذا تركنا مصيرنا رهناً بالكلمات الطنانة التي يتحفنا بها المشترعون في مجلس الشيوخ لنهتدي بها دون مراعاة التجارب المعقولة أو الالتفات الى شكاوى الشعب المؤثرة فان أميركا لا تستطيع الاحتفاظ بمركزها طويلاً بين الأمم ومع اني لا أرى حقاً يخولني لقول هذا أقول انه منذ الف وثمانمائة سنة جاء في العهد الجديد : « أين ذلك المشرع الذي يملك الحكمة والموهبة العملية الكافية لكي يستفيد من الانوار المسلطة على علم التشريع ؟ ».

ان سلطة الحكومة حتى ولو كانت من الطراز الذي أرضى بالخضوع له وانا أرضى بالاذعان مسروراً الى اولئك الذين يعملون أكثر مني ويفعلون أفضل ، وحتى في أحيان كثيرة أخضع لأولئك الذين ، اما لا يعلمون جيداً أو يتصرفون بمهارة وحكمة — ما زالت ملوثة بالدنس . ولكي أكون صريحاً أكثر وعادلاً برأيي يجب ان تحظى مثل تلك الحكومة بقبول وموافقة المحكومين . وهي لا تملك سلطة مطلقة بالتصرف بشخصي وممتلكاتي سوى ما أتنازل لها أنا عنه . اذ ان الارتقاء من الحكم الكلي المطلق

الى الملكية المحدودة ومنها الى الديموقراطية يعتبر تطوراً نحو اكتمال الاحترام الحقيقي لشخصية الفرد . حتى الفيلسوف الصيني برهن عن حكمة فائقة عندما اعتبر الفرد أساساً للامبراطورية . ثم هل الديموقراطية التي نعرفها هي آخر تطور ممكن في الحكومة ؟ أليس بالامكان التقدم خطوة الى الامام حيال الاعتراف وتنظيم حقوق الانسان ؟ فلن يكون هناك أمل لقيام حكومة حرة مثقفة الا اذا اعترفت بقيمة الفرد كقوة رفيعة مستقلة تستمد منه سلطتها وصلاحياتها وبالتالي تعامله وفقاً لذلك .. أعلل نفسي أحياناً بتصور دولة تستطيع ان توفر العدالة للجميع وتعامل الفرد باحترام جار لها . ان مثل هذه الدولة لن تجد مهانة في ان تعيش قلة من الرجال مترفعين عنها . وكل دولة تحمل مثل هذه الشهرة وتتكبد آلام سقوطها حالما تنضج ، تمهد السبيل لقيام دولة أكثر عزة وكمالاً . ولقد تصورت بخيالي قيام مثل هذه الدولة التي لم تتبلور في الواقع بعد .

حُطام

حرصاً مني على مشاهدة المحيط الذي كنت أسمع عنه حتى ذلك الوقت انه يغطّي ثلثي الكرة بينما لا يرى منه من عاش في داخل البلاد شيئاً وكـأنه عالم آخر بعيد ، قررت أن أزور ميناء كاب كود . ولقد نفذت عزمي هذا وقضيت حوالى ثلاثـة أسابيع هناك مشيت خلالهـا على طول شاطئ المحيط العميق من استام حتى بروفنس تاون كما قطعت الخليج من شاطئ إلى شاطئ أكثر من اثنتي عشرة مرة .. أما وقد كانت تلك أول زياراتـي للمحيط فعلى القارئ أن لا يتوقّع كثيراً من « الخواص » في مقالتي هذه .

لقد جبت المدينة وفكّرت بوضع كتاب عنها بعنوان مدينة كاب كود . وكلمة كاب مأخوذة من كلمة « كابوت »

باللاتينية التي ربما جاءت بدورها من كلمة كابيد أي يأخذ «يأخذ الشيء من رأسه» ومن هنا أصبحت تعني الرأس، أوليس رأس الحية أصلح مكان للقبض عليها ؟!

وفي ٩ تشرين الأول عام ١٨٤٩ غادرنا كونكورد متجهين إلى بوسطن بقصد الراحة قليلاً قبل استئناف السفر إلى بروفنس تاون . وفي بوسطن وجدنا ان باخرة النقل المتجهة إلى بوسطن تأخرت عن موعدها بسبب عواصف عاتية هبت عليها في الطريق .. وجلسنا ننتظر وفجأة جاءت الانباء وعلق احد البحارة اعلاناً على الجدار قرأنا فيه :

«حوت غرّق ١٤٥ ضحية من ركاب الباخرة في كوهاست» .

فقررنا السفر إلى كوهاست بطريق البر . وامتطينا العربات التي ازدحمت بأهالي الضحايا الذين هبّوا للتعرف على جثث أبنائهم أو أقاربهم . وفي كوهاست وجدنا جموع الناس تتجه إلى الشاطئ المطل على مكان الكارثة فاتجهنا معهم ... وكان الحشد المتجه نحو الشاطئ خليطاً من الناس ... أقارب الضحايا ... والفضوليين من نساء واطفال وبعض الصيادين يحملون بنادقهم على أكتافهم . تسير خلفهم ... وامام هذا الحشود سارت عربات تحمل على ظهرها عربات من نوع آخر ... عربات تحمل راكبها إلى السماء .. إلى الجنة .. أو النار .. التوابيت

الخشبية التي أعدت سريعاً لمواراة الضحايا التراب .

وهناك على الشاطئ انتشر الناس على طول ميلين أو أكثر يبحثون عن الجثث التي قذفها اليم ويتفحصون بقايا الحطام ، حطام السفينة الغارقة .

كان هذا حطام السفينة التي تحمل اسم « القديس حنا » من غالوي في إيرلندا وكانت تحمل زمرة من المهاجرين الجدد وقد تحطمت على الصخور المرجانية في صباح يوم الاحد ... وها نحن في صباح الثلاثاء وما زال البحر هائجاً صاخباً يضرب بأمواجه الشاطئ وكأنه بلطمه غير مكتف بما ابتلع من ضحايا .. وقد بلغ عدد الجثث المنتشلة ثمانياً وعشرين جثة .. صُفّت في نعوشها على الشاطئ بانتظار ان يتعرّف عليها أهلها وأقاربها . والشيء الغريب الذي لفت الانتباه اختفاء أي أثرللحزن على وجوه الناس .. بل لاحظت نشاطاً في العمل .. حمل الجثث .. تعريتها ووضعها في الصناديق الخشبية ثم تغطية الصندوق وقذفه فوق خشب عربة النقل التي سرعان ما كانت تنطلق إلى المقبرة ... وشاهدت نجاراً يدفع غطاء أحد الصناديق ليتأكد من الجثة التي وضعها فيه .. وما كاد يفعل ذلك حتى وقعت عيناي على منظر فتاة شابة .. شوهت معالم وجهها الاسماك فبدت عظامها رطبة .. ولا حياة فيها .. ولاحظت من ملابسها انها ربما كانت فتاة طموحة هجرت بلادها لتعمل في خدمة إحدى العائلات المستوطنة ..ولكن

القدر .. الطبيعة .. الله .. أو أي من هؤلاء قادهـا إلى حتفها الموعود ..

ثم انتقل النجار إلى صندوق آخر تمددت فيه جثتان والد وولده . ورغم بدء الجثتين بالانحلال خُيّل إليّ أن في صورة الجثتين بريق حنان أبوي ما زال يسيطر على المشهد ..

ابتعدت عن مكان تجمع الجثث المنتشلة قليلاً نحـو الشمال حيث شاهدت حطامـاً يحتضن الصخور .. وبدا لي المنظر وكأنه حطام سفينة قديمة من سفن القرصان المشهور القبطان كيد .. ولكن احد النظارة أكد لي أنه حطام السفينة الغارقة .. لقد كان الحديد جيداً والحطـام ممزقـاً إرباً إرباً .. ولا عجب ، فهل يستطيع الانسان الآن أو في أي وقت من المستقبل ان ينقلها فعـلاً على الطبيعة ؟ كلا لا شيء يستطيع الوقوف أمام الامواج إذا هي غضبت فعلاً ؟

والتفت إلى أحد النظارة ولا اشك الا ان الفضول قد أتى به إلى المكان وسألته أين كانت باقي الجثث ؟ فأشار إلى الحطام المعلق على اطراف الصخور وقال : « هنـاك ترقد باقي الجثث تحت مقـدّمـة السفينة المتكئـة على الصخور ... »

وعلى قرب منّا انشغل بعض الرجال بجمع بعـض الطحالب وأعشاب البر المستعملة كأسمدة مفيدة .. وبدا

الموت .. والجثث والحطام لا يعنون لهم شيئاً .. وانصبّ اهتمامهم على استغلال فرصة جمع الطحالب التي جرفتها السفينة معها أو علقت في ارب الحطام .. وهكذا لم تؤد هذه الكارثة إلى اهتزاز خيط واحد من الخيوط التي تتألف منها شبكة المجتمع .

وعلى بعد ميل واحد إلى الجنوب من مكان الكارثة ارتفعت بزهو واعتزاز صواري السفينة البريطانية سانت جون والتي كانت تقترب من الشاطئ هرباً من العاصفة على بعد قليل امام السفينة المنكودة .. ونجحت بالوصول إلى ميناء كوهاست بضربة من ضربات الحظ التي كثيراً ما تتحكم بمصائر السفن عابرات البحار . وعلى طول المسافة بين مكان رسو السفينة البريطانية الناجية وموضع السفينة المنكودة كنت ترى على ابعاد متفاوتة ثياب الضحايا ، بل وأحياناً قطعاً من أجسادهم الممزقة مبعثرة هنا وهناك .. وأخيراً أخذ الناس يتركون المكان عائدين إلى أعمالهم وبيوتهم ، وقد ارتوى فضولهم مما شاهدوا . وسمعت أحدهم يقول لزميله : « هيا بنا فلم يعد ثمة ما نراه هنا » .. وكأنه كان يريد كارثة أكبر لتهز مشاعره وتفقده احساسه الانساني الراكد في جوفه كالمستنقع الآسن ...

وتابعنا سيرنا نحو الجنوب وصخور شاطئ كوهاست الشهيرة تطل علينا كأشباح تحذرنا من أخطار البحر وبعد مسيرة بضع خطوات شاهدنا رجلاً وابنه يجمعان بعض

الاعشاب التي قذفت بها العاصفة إلى الشاطئ وكانا يعملان بجدّ ونشاط وكأن شيئاً لم يحدث في العالم .. لقد قذفت العاصفة مع الطحالب جثثاً بشرية .. ولكن هل الرجل تركز مع الطحالب .. الا على محاولة كسب الرغيف. ولم تكن الجثث سوى طحالب أخرى قذفها تيار القدر .. ولكن ما نفعها له ؟!

والحقيقة ان منظر الشقاء الانساني بالجملة .. منظر الجثث الكثيرة المتراكمة لا يهزّها كما يهزنا منظر شقاء واحد .. جثة واحدة .. آلام ترد .. والاعجب انني شعرت بأن عواطفي ثارت نتيجة ، لا إلى الجثث المبعثرة بل إلى الرياح التي اضطرت لحملها وقذفها على رمال الشاطئ .. فاذا كان هذا هو أمر القضاء وقانون الطبيعة فعلام نضيع الوقت بالحزن والشفقة ؟ وأرى انه إذا حق الحق وجاء اليوم الموعود فليس لنا أن نحزن لفراق صديق أو حبيب أو قريب .. فكلما ازداد تكدس الجثث كلما خفّ تأثيرها علينا لأنها تُذكّرنا ان الموت هو طريق الانسانية وليس حادثاً شاذّاً يعبر طريقها .. إجمع قبور الاموات على مرّ الزمن فتجد انهم .. الاموات ... هم الاكثرية وان الاحياء هم الاقلية ... الفرد الفرد وحده يستلفت أنظارنا ومصائبه تثير احساساتنا وتستأثر بعواطفنا.

لماذا تحزن لهذه الجثث ، فلقد جاء أصحابها إلى الأرض الجديدة ووصلوا إلى بعد بضعة أمتار منها .. ولكنها

بدلاً من الانتقال اليها انتقلوا إلى عالم آخر .. قد يكون بل يجب أن يكون أجمل وأوسع من الارض الجديدة .. عالم لم يحلم بـه كولمبوس بينما أرى انا دلائل وجوده أظهر وأوضح من كل ما بدا لكولمبوس من دلائل عن وجود امريكا ... لقد ماتوا وهم يحاولون الوصول إلى شواطئنا فانتقلوا إلى شاطئ أبعد بكثير .. شاطئ بعيـد يكمن وراء الأفق حيث سنسير جميعاً يوماً ما .. إذن فلنحمد الله لأجلهم ، فلقد وصلوا الشاطئ الذهبي قبلنا . اني أعتقد ان علينا ان نحمد الله لأن سفينتهم لم تتحطم على صخور الحياة .



يوم الرب

هذه سلسلة مقالات متصلة كتبها ثورو يوماً فيوماً يصف فيها رحلة الاسبوع التي قام بها برفقة أخيه جون على زورق صغير اندفع بهما فوق مياه نهري كونكورد ومريماك .. وفيما يلي ما كتبه عن الرحلة يوم الاحد — يوم الرب — تسبقه بضع فقرات عن وصفه لمجرى نهر الكونكورد ثم افتتاحية مقالته عن يوم السبت . وقد امتازت مقالته عن يوم الاحد ، بالاضافة إلى وصفه الرائع للنهر ومجراه وضفافه ومنعطفاته ووصفه الازاهير النابتة على مروجه والاشجار فوق التلال المحيطة به ، امتازت بمعالجته لمواضيع شتى ينتقل ثورو فيها بهدوء ولين من الفلسفة إلى الدين إلى الادب فالنقد ثم يحدثنا مطولاً عن قيمة الكتب

الجيدة ، ويجري مقارنـة بين أساليب المحدثين والقدماء من الكتّاب .

وسيرى القارئ خلال هذا كله نظرة ثورو الثاقبة الـتي تغور في أعماق النفس البشرية لتكشف جوهرها ، وكذلك روحه المرحة الساخرة التي تأخذ بتلابيب من ينتقد من كل جانب حتى تطبق عليه الخناق .

المعرب

رحلة الى نهري كونكورد وَمريماك

ربما كان نهر موسكيتاكويد قديماً قدم النيل أو الفرات إلا انه لم يحتل مركزه في تاريخ الحضارة إلاّ بعد أن ملأت شهرة أسماكه وسهوله الخضر الآفاق وجذبت اليه مستوطنين من انجلترا منذ عام ١٦٣٥ وأصبح يعرف باسم « كونكورد » .. منذ أن غرست أول غرسة على جوانبه ، ويبدو ان الغرس هناك بدأ في جو مفعم بروح الالفة والسلام . وستبقى أرضه صالحة لزراعة الاعشاب طالما وجدت أعشاب تنمو ومياه تجري ، وسيبقى اسمه نهر الالفة وخصوصاً في الهنيهات التي يعيش فيها الناس على ضفافه ... حياة سلام ووئام . كانت أراضي النهر بالنسبة إلى الجنس البشري المنقرض مجرد مراعٍ حيث كانوا يصطادون الحيوانات والاسماك ... وما زالت مراعيَ دائمة

في نظر المزارعين الذين يملكون المروج العظيمة ويحصلون منها على العلف سنة بعد سنة ...

ان القيام برحلة إلى هذا المجرى عمل يستحق الجهد والتعب المبذولين بشرط أن لا تذهب إلى أبعد من سادبوري ... لترى فقط روعة الريف الرابض خلفنا بتلاله العظيمة ومئات الجداول والبيوت والمخازن والاكداس الهائلة من العلف التي لم تر مثيلاً لها من قبل ... ومئات الرجال الذين يعتزون بكنيتهم إلى سادبوري ... وحيث تقع بحيرة «باوند روك» حيث قامت حولها اربع مدن يحيط بها كلها النهر وهي ... لينكولن وايلاند وسادبوري وكونكورد ... لم أقم في حياتي كلها برحلة طويلة وبعيدة كهذه ...

اشتهر نهر كونكورد برقة مجاريه وسلاسة تياراته التي يصعب ملاحظتها بمجرد النظر ... وقد نوه البعض بتأثير رقة جداول الكونكورد على شعور السكان هناك فأصبحوا مضرب الامثال في الدعة واللطف ... وبالمقارنة مع الروافد الأخرى التابعة لنهر مريماك يظهر بأن اسمه الحقيقي كما سماه الهنود نهر موسيكتاكويد أو نهر الروض ... ذلك لأن القسم الاكبر من جداوله تنساب وسط المروج الواسعة المرصعة بأشجار السنديان المنتشرة هنا وهناك ... وكذلك شجر الآس الذي ينتشر بكثرة ...

تتسلل شرايين الكونكورد إلى وسط المدينة دون أن

تلاحظ وبدون أن يسمع لها خرير على طول مجراها البالغ حوالى ٥٠ ميلاً من الجهة الغربية الجنوبية إلى الجهة الشرقية الشمالية ...

من المؤكد ان الانهر كانت الادلة التي كان يهتدي بها المسافرون الأوائل في حلهم وترحالهم . كما كانت الانهر غواية .. لا سيما عندما تجري روافدها بمحاذاة أبواب بيوتنا توحي بالعزيمة والمخاطرة ... ومن وحي خفقات الطبيعة كان القاطنون على ضفاف النهر يرافقون خفقات الروافد إلى أقصى الأراضي المنخفضة في البلاد أو انهم يجوبون بوحي منها المناطق الداخلية .

ولطالما وقفت على ضفاف نهر الكونكورد ... أراقب انزلاق التيار الذي يعتبر رمزاً لكافة أنواع التقدم إذ أنه يتبع نفس القاعدة في جهازه ، والوقت وكل ما يربط بذلك ... والحشائش في القعر تنثني بكل نعومة تحت المجرى ... وبالرغم من تعرضها للرياح العاتية تبقى مرتبطة بجذورها ... إلا انها تموت بعد هنيهة وتنحدر كذلك مع التيار والحصى البراقة ... التي لم تفكر بعد كي تحسن ظروفها ... والشظى والاعشاب وبراطيم الخشب وجذوع الاشجار التي كانت تمر طافية على سطح الماء متممة بذلك مصيرها ... وكانت هذه الامور مصدراً لاهتمامي ... وفي النهاية عقدت النية لكي ادفع بنفسي في أحضان المياه لتحملني حيثما تشاء ... لقد أردت ان أشعر انني جزء من الطبيعة .

السبت

وفي النهاية رفعنا المرساة من مرفأ هذا النهر وكان ذلك في يوم السبت الذي صدف وكان آخر يوم من آب عام ١٨٣٩ ... ذلك لأن كونكورد مرفأ لعبور الاجسام وخروجها مثلما هي مرفأ للأرواح .. كما كانت المرفأ الوحيد الذي لا يخضع فيه الناس لشتى أنواع الرسوم .. وكان رذاذ المطر يحجب نور الصباح ويهددنا بتأجيل سفرتنا ... وفي النهاية جفت الاعشاب وأوراق الشجر وبدا الطقس لطيفاً بعد الظهر وصافياً ونشيطاً كما لو أن الطبيعة كانت تعد العدة لبرامج حافلة خاصة بها . وهكذا بادرنا بانزال زورقنا إلى المياه بدفعة قوية وانحدرنا به بسكون تام في المجرى .. مجرى الطبيعة .

الأحد

كان الضباب الكثيف يغطي النهر والبلدة المتاخمة له ... ولكن سرعان ما أشرقت الشمس بعد أن جذفنا لعدة أمتار فتبعثر الضباب تاركاً بخاراً خفيفاً كان يتموج

على سطح المياه ... وكان الصباح هادئاً ... وطغت فيه ألوان الفجر القرمزية والبيضاء على النور الأصفر الباهت كما لو كان تاريخها يحتفظ بقسط من البربرية .

أما الانطباعات التي يتركها الصباح فسرعان ما كانت تضمحل مع الندى وإذ لا تستطيع أقوى ذاكرة أن تستوعب ذكرى عذوبته إلى منتصف النهار ... وبينما كنا نمر على مختلف الجزر كنا نعطيها أسماء جديدة بينما كنا نجذف بزوارقنا تاركينها وراءنا . وسمينا الجزيرة التي ضربنا الخيام عليها « جزيرة فوكس » وأخرى محاطة بالمياه والكروم والاشجار الكثيفة ، اسم « جزيرة العنب » ... ومن بول هيل حتى قاعة بيلريكا بدا النهر أوسع بمعدل الضعفين عنه في كونكورد ... وكانت مياهه عميقة ... قاتمة وتجري بين التلال والمرتفعات بسكون تام . وكنا نعجز في الامتدادات الطويلة من المياه عن رؤية أي شيء أو أثر لأي إنسان في الجوار ... وأخيراً وصلنا إلى شاطئ كانت مياهه قليلة الغور ورحنا نسير بمحاذاة حافة من أوتاد الطحلب الكثيفة والتي حددت مجرى المياه بصورة مستقيمة كما لو انها ضبطت بطريقة فنية ... فذكرتنا بما كنا قد قرأناه عن القلاع التي كان يقيمها الهنود من أعواد القصب. وكان الضعفان المائي ، عندما يكون من الحجم الضخم المتكامل . يبدو أعظم رشاقة من كافة الاشجار التي

نعرفها ... لا سيما إذا تراصت أعواده الواحدة تلو الأخرى بأوراقها الكثيفة الخضراء التي كانت تبدو طافية على وجه الماء كثيفة تجعل من الصعوبة بمكان رؤية أرض الشاطئ من ثنايا جذوعها المخضوضة باللون الأشهب ... انني لم أر من قبل شجراً يستطيع أن يتآلف ويتناسق مع مياه الجداول الراكدة إلى هذا الحد من الروعة . لقد كانت أكثر ريعاناً من الصفصاف المتهدل أو أية أشجار أخرى من ذوات الاغصان المسترخية والتي تحني أغصانها وفروعها في المجرى بدلاً من أن تطفو معه على سطح الماء ... وكانت تلك المناظر توحي بجمال شرقي يعيد إلى الذاكرة صورة جنائن العرب المنسقة التي شيّدها هارون الرشيد في بغداد .

وكلما توغلنا بعيداً بين كتل جديدة من الاوراق اليانعة المغمورة بعناقيد العنب ... كان سطح المياه يبدو أكثر هدوءاً والهواء شفافاً صافياً حتى لترى بوضوح تام حركات ملك السمك وطير ابو الحن وهو ينشر جناحيه استعداداً للطيران في الجو وعلى سطح الماء ... وكانت الطيور تنتقل برشاقة وتغيب بين الاشجار ثم تنحدر في طيرانها فوق قطرات المياه المنثورة ... ولم نكن لنعرف فيما إذا كانت المياه هي التي تغمر سطح اليابسة أو أن اليابسة كانت تضم المياه احضانها ... وبايجاز كان الطقس شبيهاً للابيات التي أنشدها أحد الشعراء في كونكورد عندما

أبحر في جداول المياه وراح يعبر عن عظمتها وروعتها ودهشته بهذه الابيات :

هناك صوت عميق في الجدول ...
يبعث في أنفاسه الزكية إلى الآذان الصاغيه ...
ويسترسل الصوت بسكونه الوديع ...
فنرحب له بكل وقار ... مثلما نرحب بالحكمه ...
التي تحمل في طياتها جميع الافكار الجميله ...
وتعانق الاشجار الخضر اليانعه ...
وتبتسم الصخور الرمادية بين اذرعها الحانيه ...

وأنشد الشاعر أكثر من ذلك ... ولكنها أهم من أن نذكرها في وصفنا هذا . كل شجرة من السنديان أو العرعار والتومال والصفصاف كانت تبدو في غاية الرشاقة من جذورها حتى قمة أغصانها ... كما كانت الطبيعة أحياناً تسلط عليها مرآتها لتكشف عن جذورها بصورة أوضح .. وكان الركود عميقاً غالباً مفعماً بالشعور كما لو أنه كان يقضي يوم راحته الطبيعية وخيل لنا ان الصباح كان عشية يوم سماوي ... وكان الهواء منعشاً ومبلوراً يضفي على مناظر الطبيعة بما يضفيه الزجاج على الصورة من الاطار ... يعكس الروعة والجلال على الحقيقة ... اما المروج فكانت مكسوة بالوداعة والنسيم العليل ... يميد اخضرارها حتى الافق البعيد ... والغيوم البهية بصفائها وخطوطها بدت

كسجادة معلقة فوق أرض الاحلام ... وهكذا بدا العالم لابساً أبهى حلته وكأنه في عطلة دائمة ...

لماذا لا نجعل حياتنا وكل ما حولنا جميلاً ورائعاً هكذا ؟ إن أرواحنا بحاجة إلى نهج مناسب ... يشبه إلى حد ما سبيل الناسك ويترك على حياتنا أثراً خشناً كأثر الصحراء على الناظر اليها .. الخلق يضمن لنفسه دائماً مثل هذه الميزة ... ويبتعد عن كل ما له علاقة بالامور التافهة ... أكانت تتعلق بالاشياء أو الاشخاص ... وحدث في احدى المرات أن أقلعت معي في زورقي فتاة جميلة ... وعندما جلست في مقدمة الزورق شعرنا وكأننا قد تلاشينا كأن الزورق لم يعد يضم أحداً سواها فرحت أنشد هذه الابيات من الشعر ...

هب ريح الصيف ولامس بنعومته ...
جسم الغادة التي تبحر معنا ...
انها تقصد مكاناً جميلاً ... حراً ...
وسجيتها نادرة الوجود ...
وقلبها يخفق ابداً بنقاء العذارى ...

وفي المساء ... بدت النجوم المنتشرة في السماء وكأنها رسل لهذه الغادة الحسناء جاءت تحمل اليها تحية المساء أو مخبرين جاءوا يرصدون حركاتها وسكناتها فأنشدت أقول :

عيونكِ البراقة مصوبة نحو الافق البعيد ...
ورغماً من ان نورها ليس موجهاً إلى ناظري ...
فأن كل نجم يصعد في السماء ...
يعبر لي عن خلجاتكِ الحلوة ...

ومع هذا فاني اجهد نفسي لكي احس ...
بأنك ترافقيني ...
كما لو أنكِ تسيرين بجانبي ...
تنقلين خطواتكِ الرشيقة ...
نحو لا شيء ودون هدف ...
سوف أسير بخطى رشيقه ...
وأختار أسهل السبل ...
واغمس المجذاف في الماء بهدوء ...
واتجنب الشواطئ المتعرجة ...
واوجه زورقي بحذر إلى
حيث يطفو الزنبق على سطح الماء ...
وحيث الازهار المورقه ...
تحاكي الخمائل تحت الظلال ...

كنا بحاجة إلى قليل من الخشونة لتعكير سطح المياه الصافية بزورقنا ... تلك المياه التي كان سطحها يلمع كالمرآة فتظهر تحته كل ورقة وجذع من الاعشاب النامية بصورة واضحة صافية ... وأوضح من أن

يقلدها الفن لأن الطبيعة نفسها تستطيع المبالغة عن نفسها . وكانت المياه عميقة لدرجة لا تمكن فيها معرفة عمق أضحل مكان فيها ... حتى أن المياه التي كانت تعكس صور الاشجار والسماء بدت أعمق من مياه المحيط ... ولاحظنا ان الامر بات يتطلب اهتماماً خاصاً لرؤية أشباح الاشجار والغيوم المعكوسة صورها على لجين الماء ..ه أكثر من أن يكون بالمستطاع رؤية القمر . غير آن بعض الرجال أخذوا يصوبون أنظارهم لرؤية ناحية واحدة وآخرون يتجهون بأنظارهم ناحية أخرى .

مررنا برجلين في أحد الزوارق فرأيناهما يقفان في وسط مكان مفعم بانعكاسات الاشجار والاعشاب وكأنهما ريشة في مهب الريح ... ويبدو أنهما تسمرا في مكانهما لدراسة قوانين الطبيعة ... وكان طوافهما هناك امتحاناً ناجحاً في الفلسفة الطبيعية ... لأنه بينما كانت الطيور تحلق في الجو والاسماك تسبح في الماء ... كان الرجلان يسيران بزورقهما أيضاً . وذكّرنا كل ذلك كيف يمكن أن تصبح أعمال البشر اسمى وأنبل ... وحياتنا أكثر تنسيقاً ... لو أن القابضين على زمام الأمور يستوحون خطاهم من جمال الطبيعة ... وحسن تنسيقها ...

وفيما كانت الشمس تغرب وراء المرتفعات الهائلة ... بدت الأعشاب يداعبها النسيم والمروج الفسيحة تتماوج

بالاخضرار ... وجلست الضفادع متأملة ... تلخص أعمالها خلال الاسبوع وهي تتطلع بعين على خيوط الشمس الذهبية وبالاخرى على الكون المدهش الذي تقوم بقسطها فيه ... وكان السمك يسبح في الماء برشاقة وهدوء كمشي الحسناوات وهن في طريقهن إلى الكنيسة ... ثم كانت زمر كبيرة من الاسماك بزعانفها الفضية تطوف على وجه الماء رافعة رؤوسها إلى السماء ... وهي تنزلق كما لو أن الرياح كانت تدفعها إلى الامام ... فتواصل سيرها ... الواحدة تلو الاخرى ... في صفوف متناسقة تشبه صف الجنود ... وعندما حاولنا ان نسد الطريق عليها ... استدارت بسرعة وانسحبت من تحت الزورق عائدة إلى أماكنها .

وصلنا إلى قرية بيلريكا القريبة من الاحراش ... ورغما من أنها انشئت حديثاً إلا ان الأولاد هناك كانوا يحملون أسماء المستوطنين الاوائل ... هذا وايفاء لجميع الأهداف والاغراض كانت تبدو قديمة كقدم قرية « فرناي » أو « مانتوا » حيث يقضي الناس حياتهم منذ الولادة أو حتى الموت تحت سقوف الاكواخ المبنية من جذوع الشجر ... إذاً ... هذه هي قرية بيلريكا المأخوذة عن كلمة « بيلريكاي » الانكليزية والتي كان يسميها الهنود « شوشين » .

لم أسمع سابقاً بأنها قرية حديثة . ترى كيف ان الطبيعة هنا تسير في طريقها نحو الانقراض ... فالمزارع

خاوية ... والمقهى هزيل ينوء تحت ثقل الأيام والسنين ؟ ولكن إذا أردت أن تعرف كيف نشأت فما عليك إلاّ أن تسأل تلك الصخور العريقة في القدم . وتمتاز البلدة أيضاً بجرس كنيستها الذي يصل صوته إلى احراج كونكورد ... ولا عجب إذا ارعب صوت الجرس الهندي الحالم وأفسد عليه رحلته للصيد عندما دق الرجل الابيض الجرس لأول مرة معلناً مباشرة أعماله هناك . ولكن اليوم فان ما اعجبت به هو صوت الصدى الذي كان يرتد من وراء المرتفعات والغابات ... ولم يكن هذه المرة تقليداً ... بل كان بالاحرى صوت الجرس الأصيل . أو لعل اورفيوس كان يمر بأنمله على بعض الأوتار ليسمعنا أنغامها ...

دينغ دونغ ...
كان يدوي صوت النحاس في الشرق ...
لكنني أفضل سماع الاصوات ...
التي تخفق من الغرب ...

يدق جرس الكنيسة رنات حزن ...
لكن أجراس الجنيات الفضيه ...
تردّد صوت الجماهير اللطيف ...
والا فانه آت من وراء الافق ...
عندما يقرع جرس الكنيسة معلناً الظهيرة ...

لا تسمع دقاته بسرعه ...
ذلك لأنها تدق في ساعة مبكره ...
وقبل أن تستوي الشمس في برجها ...

ومن الجهة الاخرى ، تصل الطريق إلى مدينة كارليل المشهورة بأحراشها والتي ... كانت أقل حضارة وتمدناً إلاّ أنها طبيعية أكثر . وربما كان صغرها مبعثاً للسخرية ... ولكنها بالرغم من صغرها مكان يمكن أن يخلق ويترعرع فيه رجال عظام ذلك لأن الرياح تهب عليها من كل حدب وصوب دون تمييز . وفيها قاعة للاجتماعات واسطبل للخيل ومقهى وحداد ومقادير كبيرة من الخشب وفيها قال الشاعر :

بدفورد ... آه ما أنبلك يا بدفورد ،
انني لن انساك أبداً ...

ودخل اسمها التاريخ خصوصاً بسبب تلك العريضة التي رفعها المزارعون إلى «السادة المختارين» في كونكورد يتوسلون بها انشاء ابرشية مستقلة . وقد جاء في العريضة قولهم : «كنا دائماً نؤدي فريضة الصلاة في يوم الحرب مهما كان الطقس قاسياً والظروف عصيبة ... ايها السادة لو ان مسعانا للانفراد ناجم عن حنقنا تجاه الواعظ المحترم الحالي أو الجمعية المسيحية التي كنا نهتدي

بارشاداتها القويمة ... حينئذ لكم أن لا تصغوا الينـا ، لكننا نرغب بشوق عظيم وبمشيئة الله أن يرفع عن كاهلنا عبئ واجبات يوم الرب والتنقل والتعب الناجمين عن ذلك وحتى تكون كلمة الرب على مقربة من نفوسنا وبيوتنـا وبذلك نتمكن وأولادنا الصغار من خدمة الرب ونأمل أن يكون الرب قد ألهمنا ، كما ألهم سيروس من قبل عندمـا أوعز اليه مباشرة العمل في بناء الهيكل لرفع هذه العريضة ونأمل ان يلهمكم بالموافقة على عريضتنا وفعلاً بوشـر العمل في بناء ذلك الهيكل وانتهى بسلام . وهناك في كاريل تأخر بناء الهيكل عدة سنوات مثقلة بالمتاعب ... وليس ذلك لحاجتهم إلى الخشب أو الذهب ... ولكـن بسبب الصعوبة التي واجهوها بالعثور على مكان مناسب لجميع من سيؤدون الصلاة .

والمعتقد ان رجالاً صلب العزيمة قد عاشوا في بيلريكا هذه وكانوا ينتخبون كل سنة ... وإذا كنت تشك بذلك فدونك السجلات القديمة فانها كفيلة بأن تنبئك عن الخبر اليقين . وجاء الرجل الابيض ... فبنى البيوت وانشـأ المزارع وزرع الحقول والبساتين وأغوى شجرة التفاح بأن تينع وتثمر بجانب أشجار الصنوبر والدفران ... وملأت رائحة الأزاهير والرياض ارجاء الغابة ... وبنى قريته من جذوع الاشجار التي كان يصقلها .. بعد أن أمعـن في قطع الاعشاب وتحريج الارض وتنظيفها مـن الحصى

والحجارة .. ثم بدأ ببناء طاحونة ... وهكذا أخذت الغلة تنمو في الارض البكر ... وفيما كان يلقي بذور الحنطة القى بذور الاضاليا والحندقوق التي أينعت إلى جنب الزهور البرية ... وهكذا استطاع الانسان أن يبني مدينة بكده ومثابرته على العمل ... كما أينعت ازهار البرقوق والخزنبل والعنبر على طول الطرق والممرات ... لأنها بدورها تريد أن تمجد الرب على طريقتها الخاصة . حينئذ ... أين يستطيع الهندي الاحمر أن يجد لنفسه موطأ قدم بعد أن امتلأت حقول ماساشوسش بالنحل الذي أخذ يحوم حول أكواخ الهنود ... يمتص الزهور ويمعن لسعاً بأولادهم ...

يأتي الرجل الابيض بوجهه الشاحب الذي يشبه ضوء الفجر ... مثقلاً بالافكار والذكاء يعرف تماماً بأنه يعرف ... يحسب ولا يخمن ... قوي في حياته الجماعية .. يخضع للسلطة ... متحدّر من سلالة مجرّبة ... ويمتاز باحساس رائع جداً ... جداً ... خامل لكونه قوياً ... بطيء لكونه مثابراً ... حاد الطبع لكونه عادلاً ... رجل يميل إلى العمل ويمقت الصيد والرياضة ... وهكذا بنى بيتاً ثابتاً على الدوام . وأخذ يشتري السلال والصنادل التي يصنعها الهنود ... ثم أخذ يشتري الاراضي التي تعوّد الهنود على ممارسة الصيد عليها وبعدها أخذ الهنود يحرثون أراضي الرجل الأبيض التي كانوا يدفنون فيها موتاهم ...

وها هي سجلات المدينة القديمة والتي أكل عليها الدهر وشرب ... تحمل بعض الرموز التي أشار بها الهنود على الطريقة التي أضاعوا بهـا أراضيهم ... مع تدوين بضع كلمات تدل على انساب البشر الذين حضروا إلى البلـدة فصنفهم هكذا ... السكسون ... النورمان ... السلتيك وغيرها وتقول الوقائع ان اولئك السكسون ليسوا انكليزاً ولكن « ينغيز » وهـو الاصل الـكائن وراء لقبـة « ينكيز » .

وعندما أصبحنا مقابل الجهة الوسطى من قرية بيلريكا ، رأينا السهول على كلا الجانبين محروثة ومزروعة على الطريقة الانجليزية ... وكانت رحلتنا عند ظهيرة هذا اليوم تمر بمرحلة عصيبة ... ولكن يبدو ان السكان كانوا يعيشون حياة هادئة سلمية . وكان واضحاً انهم يحرثون الأرض ويعيشون بظل حكومة سياسية منظمة وكان مظهر بنـاء المدرسة يدل على الوداعة وكأنه رمز سلام يبتهل إلى الله فرض معاهدة طويلة لانهاء الحروب والصراع بين الناس وقد توصل كل فرد بطريقته الخاصة ، كما أن التاريـخ يذكر أيضاً ... بأن الحقبة التي زرع فيها الانسان شجرة التفاح ونسق الجنائن تختلف بالضرورة عن تلك الحقبة التي كان يعيش فيها في الغابات ويمارس مهنة الصيد بأسلحـة حجرية ... ولا تستطيع واحدة من النظريتين أن تحتل مكان الأخرى دون شوائب .

كلنا عشنا اويقات تخللتها الاوهام والتصورات . وبعضها قريب من النبوة ... إلا أنه من حيث موضوع الفلاحة فانني مقتنع بأنها تعود إلى حقبة أبعد من الزراعة .. ويقيني أن طبيعتي مجبولة بحنين فردي نحو جميع أصناف الطيش والفظاظة مع أنني لا أعلم ان نفسي تنطوي على شيء سوى حبّ عميق لبعض الاشياء ... ولكن عندما اتعرض للتوبيخ أعود أدراجي إلى هذه الارض .

البستنة مهنة محترمة واجتماعية لكنها تحتاج إلى القوة والحرية في الغابة وإلى الخروج عن القانون . ربما كان هناك المزيد من الزراعة مثل أي شيء عداها حتى تصبح المدنية مفعمة بالحنان . وما الصنوبرات الباسقة التي تنمو في حقول القمح سنة بعد سنة إلاّ حقيقة منعشة بالنسبة اليّ . إننا نتكلم عن تمدين الهندي ولكن كلمة تمدين ليست بالنعت المناسب لما نحاول تحقيقها . إذ أنه باستقلاله المتيقظ وفي عزلته في الغابة يستطيع المثابرة على الاتصال بآلهته وممارسة حياة فريدة في نوعها مع الطبيعة . وتراه يرمق صالوناتنا التي تبدو غريبة عنه ... بنظرة مشبعة بالتألق والاعتبار . ولا نعدو الحقيقة إذا قلنا بأن هناك ملذات بريئة تتخلل حياة المدن ... وأن من المفرح احياناً ان نجعل الارض تزيد في العطاء ونجمع الأثمار في فصولها المناسبة ... غير ان روح البطولية لن تتخلف عن تحقيق أفضل وسائل البطولة وركوب الدروب الوعرة

المسالك . إننا لن نستمر في ترويض الطبيعة وجعل الحصان والثو ر حيوانين أليفين بل يجب أن نستمر بتشغيلهما في قضاء حاجتنا وأعمالنا .

هناك أشياء أخرى أكثر بساطة وفطرية في الطبيعة تفوق بجمالها كل ما أنشده شعراؤنا . الا ان معظم تلك الاشعار من نظم البيض . ولو اننا نستطيع الاصغاء ولو لحظة واحدة إلى الاناشيد الهندية لتمكنا من معرفة الاسباب التي تجعل الهنود يرفضون مقايضة توحشهم بمدنيتنا . فالشعوب ليست « كيفية » . فالحديد والفولاذ والاغطية أشياء مغرية جداً ... لكن الهنود يفعلون حسناً في بقائهم هنوداً ... أقرب إلى الطبيعة .

وبعد قضاء بضعة أيام في غرفتي أطالع الشعر ... خرجت في صباح أحد الايام الكثيفة الضباب فسمعت زعيق بومة يصدر من وراء الاشجار وبدا الصوت وكأنه صادر عن الطبيعة التي لم تكن بعد قد امتدت اليها يد الانسان . وكلما توغلت في الغابة كنت أرى أنواعاً غريبة من الطيور بألوانها الغريبة العجيبة ... وكنت أسأل نفسي لماذا اغفل الشعراء تصوير هذه الروائع في أناشيدهم .

وكما ذكرت من قبل ، كان الكونكورد مجرى راكداً راتباً ... ولكن مناظره تأخذ بمشاعر المسافر ولبه ... واليوم بدت مياهه والانعكاسات المطبوعة عليها أكثر دهشة وروعة عن ذي قبل . وقبل ان تصل المياه إلى

المنحدرات في بيلريكا ... تزيد سرعتها ويقل عمقهـــا وتبدو الحصى الصفراء في القعر واضحة جلية للعيان ... ولكنها تصبح غير صالحة لمرور الزوارق فوقها ... تركنا هذا الاخدود الواقع تماماً فوق مصبات بيلريكا ودخلنا في القنال الذي يمتد إلى مسافة ستة أميال تقريباً بين الاشجار حتى تصل إلى مريماك في ميدلسكس ولما كنا لا نبغي التباطؤ في رحلتنا ، تابعنا سيرنا وانهينا المسافة في أقـــل من ساعة . ويستمد هذا القنال ، الذي يعتبر أقدم قنـال في المدينة ، مياهه من الكونكورد ... وهكذا كنا لا نزال نعتبر أنفسنا مسافرين على مياهـــه ... وقدرنا في ذات الوقت مقدار المياه التي يوفرها النهر لخدمة التجارة .

كانت رحلتنا ممتعة حقاً ... منفردين مع النهر ... في وحشة البرية حيث لم نرَ أية بيوت أو مسافرين عدا بعض الشبان الذين كانوا يستريحون على جسر في شلمز فورد ... فأخذوا يتفحصوننا بأنظارهم من علو ... ترى ماذا عسانا نفعل ... ومن نكون وكيف نجرؤ على الخروج في يوم عطلة الرب ... ثم وقعت عيوننا على عيون شاب منهم بدا لنا أنه أكثرهم اقداماً وشجاعة ... وبقينا نتطلع اليه حتى بان عليه التكدر من نظراتنا المصوبة ...

ولا أكون مغالياً إذا قلت بأنه تمنى لو كان يحمل خنجراً لينقض به علينا من فرط الغضب الذي كان ينهش قلبه من نظراتنا ... نظرات الانسان إلى أخيه الانسان إذ لم

تكن نظراتنا عدائية ... بل لا بدّ انها أصابت منه موضع الخجل فثار ... واظن ان الانسان لجأ إلى اختراع الخنجر والسيوف وغيرها من وحي « نظرات » الانسان لأخيه الانسان لأنها تبدو حين الغضب كسهام حادة مصوبة لتجرح .

ان العيون التي في طرفها حور
قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

ولما تخطينا آخر جسر فوق القنال المؤدي إلى مريماك أخذ الناس الخارجون من الكنيسة يتطلعون الينا ... واخذوا يتكهنون عما عسانا نكون وأين نحن ذاهبون كأن العادة تأبى أن تترك كاهل الانسان أو أن الانسان لا يريد التخلي عنها . وجدت مرة بين أوراق بعض القضاة في كونكورد هذه الحكاية القصيرة عن العادة الراسخة في نفسية الانسان ، وهي كما يلي : « عرفنا ان الذين خرجوا من النهر في الثامن عشر من شهر كانون الأول عام ١٨٠٣ أي في عطلة يوم الرب هم جرمياً ريتشاردسون وجوناس باركر كلاهما من شيرلي . وكان برفقة هذه الزمرة متاع وعتاد وكانت وجهتهم جميعاً إلى الناحية الغربية ... وسئل ريتشاردسون من عساه يكون جوناس باركر ... فرد بأنه رفيقه بالسفر ، وقال إن لونغلي رئيسه في العمل يشهد بصحة ذلك . » . وها نحن بدورنا نشكل نفس الزمرة

تقريباً ونخرج إلى النهر في اليوم الاول من أيلول عام ١٨٣٩ ووجهتنا شمالاً ... وسرنا دون أن يسألنا أحد ودون أن نطلب حماية أحد . ويقول المؤرخون في القرن السابع عشر ان السلطات الدينية عمدت آنئذ إلى بناء سجن صغير قرب مقهى البلدة لسجن كل من لا يحفظ يوم الرب ... أما الآن فقد خفّف المجتمع من غلواء هذه العادة دون أن يؤثر ذلك على الدين أو يقلل من شأنه ...

انك لا تستطيع اقناع إنسان بأنه يرتكب غلطة في حياته غير انه اذا لم يقتنع هو ... فربما اقتنع احفاده في المستقبل. يخبرنا علماء طبقات الارض بأنهم صرفوا مئة سنة لاثبات ان البقايا الاثرية المتحجرة كانت من مادة عضوية ولكنهم قضوا مئة وخمسين سنة أخرى لكي يثبتوا بأنها تعود الى عظام نوح واهله وان ليس لها علاقة بطوفان نوح ، انني لست واثقاً .. الا أنه لزاماً علي انأعتمد في حياتي الافكار الحرة التي ابدعها اليونان من أن اتكل على إله بلادي . هذا ورغماً من ان يهوه قد اتحفنا بميزات وصفات جديدة وانه فوق ذلك مطلق تصعب مقابلته أو الاتصال به .. ومع ذلك فانه لا يبدو في نظري أكثر ألوهية وقداسة من جوبيتر .. كما انه لا يحاول ان يفرض نفوذه على الطبيعة كما فعل غيره من آلهة اليونان الكثيرين ... ان آلهةاليونان شباناً يتحدثون كثيراً ولا تخلو نفوسهم من الرذائل التي

يتصف بها الرجال .. ولكنهم من عدة نواحٍ هامة يعتبرون في الاساس من أصل إلهي . وفي عرفي عن البانشيون فاني أعتبر الإله « بان » ما زال متربعاً على عرش عظمته البدائي .. بوجهه المورد ولحيته الطويلة وجثته الضخمة .. ممسكاً عصاه في يده ومن حوله الحواري وابنته المختارة « أيامبي » . والسبب الذي يجعلني اعتقد بذلك هو لأن الإله « بان » لم يمت كما شاع وذاع عنه فالآلهة لا تموت أبداً اليس كذلك ؟!

يبدو لي ان الإله الذي يعبده المتحضرون .. كما يسمون أنفسهم ، لا يمت الى القداسة بصلة رغماً من انه يحمل اسم الالوهية : لأن البشر يوقرون بعضهم بعضاً ولا يوقرون الله . ولو طلب مني الكلام عن الشعوب المسيحية دون تمييز أو محاباة .. لامرتهم بالمديح والاطراء .. ولكن ذلك يكلفني الكثير . فمع ان تلك الشعوب تبدو أكثر انسانية وثقافة من غيرها .. (وقد يكون هذا القول خاطئاً) اذ ان لكل شعب آلهة تناسب ظروفه واحواله .. كان لدى الهنود الساكنين على الجبال وقربها إلهاً يدعى « تواهيتو » شكله مثل شكل الكلب ولكنهم يؤمنون بأنه ينقذ البشر من السقوط والزلل عن الصخور والاشجار في ساعات الشدة والخطر .. واعتقد باننا لا نحتاج لقوته ومعونته لاننا لا نمارس التسلق كثيراً ..

وهناك معتقدات كثيرة ومختلفة لا تصدق .. فلماذا نجفل

عند ذكر أي منها ؟ فما يعتقد به الانسان يعتقد به الله .
ففي حياتي الطويلة كلها ، لم أر أو أسمع أحداً خرج عن الدين بشكل مباشر أو بوعيه الكامل .. فأين اذن ذلك الانسان المجرم الذي أساء شخصياً ومباشرة الى الاله الذي خلقه ؟

هناك زيادة لا تنسى على علم الاساطير القديم ، هي هذه المرحلة التي تسمى بالخرافة المسيحية ، التي حيكت خيوطها بجهود هائلة من الآلام والدماء والدموع خلال القرون فقط لتضاف الى أساطير البشرية . وبروميثيوس الجديد .. كم تطلب من الخوارق والصبر والمثابرة حتى أصبح بالامكان طبع اسمه على ذكرى الاجيال ! ويبدو ان أساطيرنا تتطور وان هذا التطور هو الذي حدا بنا لكي نخلع يهوه عن عرشه ونتوج المسيح مكانه ..

ان لم تكن حياتنا مفعمة بالفواجع والكوارث .. فأي شيء آخر هي ؟ خذوا مثلاً قصة المسيح .. وقصة القدس الدفين دون تخبيط بين التلال .. لأنها قصة الانسانية .. قصة المدنية التي تضم أجمل المعاني .. وقارن ذلك بالطريقة التي يدعون فيها للمسيحية الآن .. وتساءل كيف أصبحت حياة فلاح يهودي متواضع تجعل مطراناً في نيويورك غاية في التعصب وضيق الأفق وكيف اقتصرت على أربعين مصباحاً تضيء فوق الضريح المقدس .. وعلى الاجراس تدق وبعض دموع الحجاج تذرف على جبل الزيتون طوال أسبوع :

« أورشليم ، أورشليم لتنسني يميني ان نسيتك ... »

اعتقد بان كثيراً منا أقرب الى بوذا أو المسيح أو سويدنبرغ دون اللجوء الى الكنائس . وليس من الضروري أن يكون الانسان مسيحياً لكي يقدر جمال ومغزى حياة المسيح بل الواقع انه يقدرها أكثر ان لم يكن مسيحياً . قد يغتاظ البعض اذا رأوا أو سمعوا اسم مسيحهم مطبوعاً بجانب إلهي بوذا .. بيد اني أتمنى لهم من صميم قلبي ان يحبوا مسيحهم أكثر من بوذاي .. لأن المحبة هي الأساس وانا كذلك أحب بوذاي .

قلما يبقى المسيحيون متعصبين لا يتسامحون ؟!

ان العالم الذي نعيش فيه مكان غريب يصلح للتمثيل . بل انه مسرح يعتقد درايتون بأنه يقتضي على كل من يظهر على خشبته وخصوصاً اذا أراد ان يكون شاعراً يتحلى بالشجاعة وببعض الجنون الناعم في عقله .

تصور أي عالم بائس خسيس هذا الذي نعيش فيه .. وتصور كيف اننا نضيع أعمارنا في اضاءة المصابيح لكي نرى الاشياء ونعرف كيف نعيش ، فالليل نصف عمرنا يضيع هكذا سدى وحتى النهار ماذا يقدمه لنا غير شمعة نورها أنصع .. وهكذا تغرينا الطبيعة بالشمس لكي نتحمل الحياة .. انها رشوة ليس الا .. غرضها ان تمضي في حياتنا بعقبات أقل . فمن كان سيحتمل مشاق الحياة او كان العمر كله ظلاماً نقضيه في اضاءة الشموع ؟وهكذا نبارك

الخالق لأجل رشوة صغيرة من نور الشمس والقليل من الألوان الموشورة الأخرى ونسعى لابعاد غضبه عنا بالاناشيد والالحان ..

معظم الناس الذين اتصلت بهم .. وكلمتهم .. رجالاً كانوا أو نساء .. ممن يدعون العبقرية .. رأيتهم ينظرون الى العالم نظرة عميقة وجافة .. وجافة جداً .. صدقني القول بأن نظرتهم جافة .. محصورة في بضع كلمات .. قديمة .. عقيمة لا تدل على شيء فالقيتهم وكانوا يسيرون نياماً .. وبعضهم ما زال يردّد تلك الكلمات القديمة كالآب والابن والروح والقدس وما شابهها ويعتقدون بأنها مراسي أبدية سرمدية .. يستطيعون الارساء عليها .. أما من جهتي أنا فأنني لم أر في جميع تنقلاتي أثراً .. ولو بسيطاً .. لسلطة مثل هذه الاشياء .. لكن يبدو بأنها لم تترك أثراً بارزاً كالذي تركته زهرة عريقة في القدم على قطعة حجر الفحم الذي أحرقه في موقدي .. برأيي ان أحكم الرجال هم أولئك الذين لا يبشرون أو ينادون بأية عقيدة معينة .. كما ان حياتهم خالية من أي برنامج .. ولا يفكرون بأية ضغينة ضد السماء .. لأنها صافية نقية وعندما أراها أكثر صفاء في بعض الاحيان فلأن مجال الرؤية أصبح أنقى وأصفى أما ان أتطلع نحو السماء من الارض لأرى هناك ذلك الشيء الثابت .. أو تلك البدعة اليهودية القديمة فأمر لن أفعله. ثم ما هو الحق الذي يخولك ان تضع حاجزاً بيني وبينك

يحول دون ان أفهمك أو تفهمني

انك لم تخترع السماء بل انها فرضت عليك فرضاً ..دقق في قدرتك وسلطتك .. حتى المسيح نفسه .. كان لـــه برنامج وحاول الالتصاق ببعض التقاليد والعادات التي أفسدت تعاليمه نسبياً ..فقد بشر بنظريات مجردة .. ولكنه عاد وبشر بعقائد ضيقة . وأنا أعتقد بأن ابراهيم واسحق ويعقوب ليسوا سوى دهمائيين لا يمكن تصور ادهى منهم : ان دعوتك يجب ان تشمل الكون كله والا فاسكت ولا تدعُ الى شيء :

ان الاله الكامل لم يستطع في خضم كشفه عن ذاته ان يرسم صورة عن نفسه مثلما تصوروه . هل تعلمتم أبجدية السماء ؟ وهل تعرفون عدد أفراد عائلة الله ؟ وهل بوسعكم ان تحولوا الغموض الى أرقامِ ملموسة ؟ قولوا بربكم .. من تكونون في عالم الجغرافية حتى تتكلموا عن طوبوغرافية السماء ؟ وهل انتم أصدقاء الله حتى تتكلموا عن شخصيته وهل تعتقد انت يا ميلر هوارد ان الله قد اختارك سكرتيراً خاصاً له ؟ ! أخبروني كم يبلغ ارتفاع الجبال في القمر أو محور الفضاء .. فربما صدقتكم .. أما اذا تكلمتم عن تاريخ القدرة الإلهية السرّي .. فانني أعلن منذ الآن بأنكم تتخبطون في الجنون !

العهد الجديد كتاب لا يقدر .. واعترف بأني لم أسمع كلمة ضغينة وجهت ضده من الكنيسة أو من مدرسةالرب

وهكذا اعتقدت بأنه أفضل كتاب .. هكذا كنت أعتقد قبل ان أطالعه .. بيد انني تخلصت باكراً من الوقوع في شراكه .. وقد تبدو محاولتي التقليل من قدر حياة المسيح تافهة سخيفة .. والحقيقة انني لا أنوي عمل شيء من هذا القبيل ولكن تذكروا ان المسيحيين هم الذين أشرفوا على كتابة تلك السيرة .. والحقيقة .. انني أحب هذا الكتاب كثيراً رغماً من انه يبدو لي مثل قلعة معلقة في الهواء ..؟ وقد أحببت كثيراً مطالعة الكتب المقدسة عندمختلف اشعوب والحقيقة انني أصبحت محيطاً بأديان الهندوس والصينيين والفرس أكثر من دين العبرانيين . انني أحب كتب الأديان حتى أنك اذا أردت اسكاتي فما عليك الا ان تناولني واحداً منها .. تتخلص مني الى حين .. !

هذه هي تجاربي مع العهد الجديد .. ولكن رويدك ، فانني لم أصل بعد الى قصة الصلب . فقد أعدت قراءتها عدة مرات ، وكنت أود قراءتها بصوت عال أمام أصدقائي فهي رائعة وتنطبق على حياة كل منهم .. ولكن هيهات أن أصل الى أسماعهم !وحتى في المناسبات القليلة التي أجبرتهم فيها على الاصغاء .. سرعان ما أبدوا تذمرهم وضيقهم ..

وبالرغم من الاقبال العالمي والرواج الكبير الذي قوبل به كتاب العهد الجديد .. فما أقل ما يلتفت الناس الى نظام ترتيب الحقائق فيه ..وأنا لا أعرف كتاباً يبلغ قلة قرائه بمقدار

ما يبلغ هذا الكتاب . وانهم يقرأونه دون فهم منهم أبداً ، وهو بالنسبة اليهم اليونان واليهود على السواء .. هباء في هباء وعقبة لا تتزحزح .

ويضم الكتاب بين جلدتيه أموراً يتوجب على المرء ان لا يقرأها بصوت عال أكثر من مرة واحدة ، مثلاً :
« أسعَ أولاً لدخول ملكوت الرب.. ولا تكدسوا أموالكم على الأرض .. واذا أردت ان تكون انساناً كاملاً اذهب وبع الذي عندك واعطِ الفقير ... بذلك يصبح لك كنز في السماء .. لأنه ماذا ينفع الانسان اذا ربح العالم كله وخسر نفسه .. » وغير ذلك ...

تأملوا في هذه :

« الحق أقول لكم انه اذا كان عندكم مقدار ذرة من الايمان .. لاستطعتم ان تقولوا لهذا الجبل ان ينتقل من مكان الى آخر فينتقل .. ولن تقف في طريقكم العقبات »

وتصوروا قراءتها أمام جمع محتشد في نيو انجلند ..ثالثاً ورابعاً ... وخامساً .. وحتى المرة الخامسة عشرة لغاية ان تمتلىء بطونهم بالخطب والأقوال !

من يستطيع قراءة هذه الأقوال عالياً .. دون رياء ؟
ومن يستطيع سماعها لساعة ولا يغادر مكان الاجتماع ؟

لقد صرف المسيح جل اهتمامه إلى العالم الأخر ، العالم السماوي ولم يهتم كثيراً بأن يعلمنا حقاً كيف نعيش على هذه الأرض التي وجدنا عليها .. ولها .. لقد تناسى

أجسادنا واهتم فقط بأرواحنا متناسياً اننا فعلاً وواقعاً جسد وروح.

ويبدو ان القول : « افعل للغير كما تريد ان يفعله الغير بك » يبدو ولا شك قاعدة رائعة في الحياة .. ومع ذلك فان الفرص المتاحة أمام الرجل الشريف للعمل بموجب هذا المثل تبدو ضئيلة جداً .. والاروع من كل ذلك ان لا يكون هناك قاعدة للمعاملة على الاطلاق .

ان شخصاً قوياً يقوم بعمل ثابت في قطع الخشب مقابل ٥٠ سنتاً عن كل جذع من الشجر ويسكن في الغابة لا يمكن ان يصبح من الرعايا الصالحين للدين المسيحي ربما يجد بعض العزاء له في قراءة كتاب العهد الجديد .. ولكن ليس كل العزاء .. اذ ربما يذهب لصيد السمك في سويعات الراحة والرسل أنفسهم كانوا صيادي أسماك .. الا أنهم كانوا لا يتسكعون حول مجاري المياه الداخلية لصيد الاسماك.

في الانسان رغبة فريدة لان يكون طيباً دون ان يفعل شيئاً يجعله جديراً بهذا الوصف وذلك لأنهم يعتقدون خطأ بأن « النهاية ستكون على خير ما يرام » . وهذا الشعور المضلل نتيجة حتمية لدروس الاخلاق التي يلقيها الكهان على الناس . وهذه السياسة سياسة الكهنوت سياسة حاذقة يمارسونها بنجاح وهي تفوق في حذقها ونعومتها أساليب السياسيين .. وبذلك نرى انهم يحكمون العالم كما يحكمه رجال البوليس . وليس من الحكمة في شيء أن ندع نقائصنا تزعجنا دائماً .. وجدير بنا ان لا ندع الضمير يحتكر سبل

حياتنا كافة دون مشاركة القلب أو الرأس . لأن الضمير عرضة للتلوث بالمرض كأي قسم آخر من أقسام الجسم .

زجرني ذات مرة كاهن لأنني كنت ذاهباً أسير فوق التلال في يوم الرب بدلاً من الذهاب الى الكنيسة . وزاد في قوله بأن عملي هذا مخالف للوصية الرابعة من وصايا الله وأخذ يردد على مسامعي بصوت ناعم المصائب التي كانت تنزل به كلما كان يقوم بعمل ما في يوم الرب . وكان يعتقد حقيقة بأن الله يراقب خطوات جميع الذين يقومون بعمل زمني في ذلك اليوم . كانت مثل هذه الخزعبلات تملأ المدينة . وهناك أشياء أخرى أكثر اثارة وسخافة تحدث في شوارع القرى الأخرى .. ذلك عندما تسمع صوت الواعظ وهو يعصف مثل صوت مرشد السفينة ابان العاصفة .. وهو يخطب في الناس ليعكر عليهم صفاء النهار .. وخصوصاً نهار العطلة .. أي يوم الراحة !

ألم تلحظ ان بناء الكنيسة هو أبشع بناء في القرية .. لا لأنه أقدمها بل لأنه المكان الذي تهان فيه كرامة الانسان أكثر ما تهان .. ولكن رويدك سيأتي اليوم الذي تزول فيه هذه الأبنية ويبقى للأرض جمالها :

الضمير غريزة تنمو في البيت
التفكير والشعور يغذيانه
حتى يكبر ويصلب عوده

كم أحب الحياة البسيطة
التي لا تتعقد مع كل دمل
والروح التي لا يقعدها ضمير
مريض
يجعل الحياة تبدو أكثر وحشة
مما هي

انني أحب الضمير الضاحك
وأكره الباكي
الضمير الثابت النقي
لا المتبدل مع كل حادث

احب الروح الصادقة
الصادقة مع نفسها
لا تتلوى مع التقاليع
وتتظاهر بالطيبة لارضاء الناس
نعم أحب الروح ، التي تتم عمل الرب
لا التي تتركه ناقصاً .

اذا طلبت من كاهن ابرشية ميدلسكس كي يسمح لي بالقاء موعظة عنه في يوم الاحد فانه يعترض لأنني لا

أستطيع ان أصلي كما يصلي هو أو لأنني لم أرسم كاهناً بربكم ... ماذا تعني هذه الاشياء ..؟

الحقيقة لا توجد نميمة تفوق تلك التي تدعو الى الصلاة وحفظ يوم الرب وبناء الكنائس . ان الكنيسة نوع من أماكن الاستفتاء والراحة لأرواح البشر ولكنها مفعمة بالتدجيل بمقدار ما تجد في المستشفيات الحكومية وان أولئك الذين يعيشون فيها يحيون مثلما يعيش المتقاعدون في أواخر حياتهم ترى صفوفاً من المقعدين يجلسون على أبوابها في الشمس . أرجوكم ان لا تجعلوا المرضى يتطلعون بأنظارهم صوب الكنيسة للشفاء .. فالانسان يصاب بقلبه من هذه العبادة الجنونية ... وربما كانت كلمات الواعظ مفيدة نافذة في الأماكن المظلمة وزنزانات السجون..ولكن ليس في الاماكن المنيرة من العالم الذي أعرفه أنا .. وكذلك صوت الجرس الذي يدق في يوم الرب فأنه لا يوقظ السرور في قلوب الجماعات .. بل يولد الاكتئاب والقنوط في المسيحية التي تحلم فقط وقد شدت بأوتارها على المندف،وهكذا أصبحت لا تستطيع الانشاد في أرض غريبة .. وعلتها كما يبدو انها حلمت حلماً حزيناً .. فهي لذلك لا ترحب بمجيء فجر الصباح . الأم تعلم صغارها القصص السخيفة .. ولكن شكراً للسماء اذ أن الأولاد لا يترعرعون كما يريد آباؤهم . فمعتقدات تلك الأم لم تنمُ جنباً الى جنب مع التجربة والخبرة ، ولهذا أصبحت الخبرة عبئاً ثقيلاً عليها والحياة

درساً أصعب من أن تتعلمه .

من الراهن ان معظم الخطباء والكتاب يشعرون بأن من المحتم عليهم ، عاجلاً أم آجلاً اثبات هوية الله أو التعرف عليها . وهناك ايرل من بريدج وتر .. فكر بها في أواخر حياته وذكرها في وصيته . الا أنه ارتكب غلطة فادحة . ذلك لأنه اذا قرأنا موضوعاً يتعلق بالزراعة يجب أن نسقط من حسابنا تصورات الكاتب الخلقية وكلماته عن « العناية الإلهية » و « الخالق » المذكورة هنا وهناك في الصفحات الى ان نصل الى معرفة ما يفيدنا معرفته من كتاباته . ألم يلحظ الناس بعد أن في العلم ديناً أكثر مما في الدين من علم ؟

ان ايمان الانسان الحقيقي ليس في عقيدته الدينية كما ان عقيدته الدينية ليست سجلاً لايمانه .. فالولاء لا يعتنق أبداً وهذا ما يجعله يبتسم أبداً ويعيش بأقصى ما يستطيعه من الشجاعة . ومع ذلك نراه يلتصق بعقيدته الدينية معتقداً بأن في ذلك الفائدة لنفسه غير عارف أنه يتمسك بقشة هشة.

في معظم أديان البشر ، يكون الرباط المقدس الذي يجب ان يكون الحبل السري يشدهم الى الألوهية مثل ذلك الخيط الذي أمسك به المتآمرون في سيلون عندما خرجوا من هيكل منيرفا يشدون خيطاً مشدوداً الى تمثال الالـهة منيرفا . فحدث ان انقطع الخيط وأصبحوا دون ملجأ يأوون اليه بعيدين عن الآلهة منيرفا .

وفيما كنت أفكر بهذه الأمور وجدت بأننا وصلنا الى مريماك فوق شلالات بوتاكيت تماماً .. حيث ساعدنا هناك على تخطي الحواجز شخص ترك كتابه جانباً .. بعد ان اعتقدنا بأن واجباته تفرض عليه ان لا يفتح لنا الحواجز يوم الأحد . ولكن ظهر من تصرفاته بأنه شخص متحرر عاملنا معاملة لطيفة ودلت نظراته على أنه ينظر الينا بعين الرضى والمساواة .

من المعروف ان تحركات العين تعبر عن مدى احترام الناس بعضهم بعضاً بطريقة لاشعورية . ويقال بأن الخبيث لا يتطلع لوجه محدثه أبداً ، وكذلك الرجل الشريف لا يتطلع اليك كما لو انه يسعى لتوطيد سمعته . ورأيت أناساً لا يعلمون متى يجب ان يحولوا أنظارهم عن عيون الاخرين حين يقابلون بعضهم البعض . أما الواثق والمعتز بنفسه فهو أحكم من ان يتباهى بالانتصار في مثل تلك الحالات ذلك لأن الأفاعي وحدها تنتصر من تثبيت عيونها في عيون ضحاياها. وهكذا تطلع هذا الرجل الى وجهي فرآني وذلك كل شيء .. وعلى أي حال ، فقد توطدت بيننا وبين هذا الرجل أقوى أواصر الصداقة رغماً من أننا لم نتبادل معه سوى بضع كلمات . وكذلك هو لم يستطع ان يخفي عنا دهشته وفرحته بنا وبرحلتنا القصيرة . ووجدنا بأنه مغرم بالرياضيات العالية وانه كان غارقاً في معالجة مشكلة عويصة عندما فاجأناه وأخبرناه بما كان يدور في رأسنا .

فوجدنا ان الحرية السائدة في مريماك قد تجسدت في شخصية هذا الرجل . وشعرنا كما لو اننا كنا نسير بسهولة فوق مياه المحيط .. في هذه المرحلة من رحلتنا وسررنا لما وجدنا أن زورقنا يستطيع العوم فوق مياه مريماك . فبدأنا في الحال نقوم بالتجذيف ونسير الدفة وغير ذلك .. ودهشنا لامتزاج مياه النهرين بهذه السرعة إذ اننا لا نستطيع مزجهما بتفكيرنا .

وفيما كان الزورق ينزلق بنا فوق أحضان المياه الواسعة في مريماك والواقعة بين شلمزفورد ودراكوت . . . كان صدى صوت المجذاف الضارب في المياه يصل الى القرى القريبة ليعود صداه الينا خافتاً . وبدت مرافيء القرى الكائنة هناك هادئة ساكنة رائعة كما تخيلنا ليدو أو سيراكوز أو رودن أيلز . وبعد مسير ثلث ميل فوق سطح المياه وصل الى مسامعنا صوت صبيان صغار يرددون تعاليمهم الدينية في كوخ قريب من الشاطىء .. بينما وقفت في الجانب الآخر قطعان من البقر تلوح بأذيالها وكأنها في حرب مع الذباب .

منذ مائتي سنة مضت قام هنا تعليم ديني من نوع آخر، لأن كاهن الهنود واناالانسيست « ساخيم » وشعبه جاءوا الى هنا .. كما جاء تاهاتاوان ، الذي بنى له معبداً هنا حتى يتمكن من اصطياد السمك قرب الشلالات ..وجاء ايفاجون اليوت حاملاً التوراة والكتب الدينية وكتاب باكستر

المسمى « دعوة الى الملحدين » وأشياء كثيرة غيرها لقنت للناس بلغة ماساشوسش وتعلموا معها الديانة المسيحية . ويقول غوكين :

« أتى جون اليوت ورجاله الى هذا المكان « مسيراً الى وامسيت » لكونه قديماً ويعتبر عاصمة الهنود ، لاصطياد السمك .. فانتهز رجاله هذه الفرصة والقوا بشباك أناجيلهم كي يتمكنوا من الصيد لأرواحهم . . . كان ذلك في الخامس من أيار عام ١٦٧٤ ... » ويتابع غوركين كلامه قائلاً :

« نظراً للعادة المتبعة هناك ذهبت أنا وإليوت إلى وامسيت أو بوتاكيت فوصلناها مساء وأخذ إليوت يلقي بمواعظه التي استمد معظمها من انجيل ماتيوس . وبعدها قابلنا شخصاً يدعى وانالانسيست بالقرب من كوخ للهنود يبعد ميلين تقريباً عن المدينة وبقرب شلالات بوتاكيت على حدود مريماك . وهذا الشخص كان أكبر ولد لرئيس قبيلة باساكوناواي في بوتاكيت لكنه وقور ورصين يتراوح عمره بين الخمسين والستين سنة . وكان دائماً صديقاً أميناً للانكليز » . ومع ذلك ، راحوا يحاولون إقناعه باعتناق الدين المسيحي . ولكن غوركين يقول : « عندئذ ... وقف الرجل بعد قليل من الأخذ والرد والجدل الهام والقى خطاباً بهذا الصدد قال فيه : يجب أن أعترف بأنني قضيت حياتي أعبر النهر في زورق قديم

والآن تنصحونني بأن أغير عادتي وأتخلى عن زورقي القديم لأركب في زورق جديد ، الأمر الذي لا أرضاه لنفسي . والآن فأنني أقبل بنصيحتكم للدخول في زورق جديد وممارسة الصلاة إلى الله من الآن وصاعداً . » ورغب شخص آخر يدعى ريشارد دانيل من بيلريكا أن يقوم الأخ اليوت بتبليغ الرجل الهندي أنه إذا عاد إلى عادته القديمة فأنه سيخسر روحه وجسده ! أما الآن وقد ارتدى ثوباً جديداً فأنه سيجد الراحة الأبدية رغم ما سيعترض طريقه من محن وصعاب إذا هو تابع سيره بشجاعة وثبات . ويضيف غوركين في مذكراته قائلاً : « ومنذ ذلك الحين كنت أسمع بأن ذلك الهندي كان يواظب على سماع كلمة الرب ويحفظ يوم الرب رغماً من أنه كان يتكبد المشقات أثناء سفره إلى وامسيت لحضور الاجتماعات الدينية فيها ... بالأضافة إلى أن الكثيرين من عشيرته نبذوه لأنه اسلم نفسه للرب ! »

ويظهر من الوقائع المدونة عن اجتماع عام عقد ببوسطن في نيوانجلند بتاريخ السابع من أول شهر من عام ٤ ـ ١٦٤٣ ان « واسامكوني ، ناشونون ، كوتشامكوين ، ماساكونوميت وسكوا وساخيم ، سلموا أنفسهم أيضاً للانكليز بمحض اختيارهم . كما عبروا فوق ذلك عن رغبتهم في تلقي بعض الدروس الدينية لزيادة معرفتهم في الرب من وقت لآخر . » وعندما طلب اليهم أن لا

يقوموا بأي عمل غير ضروري في يوم الرب وخصوصاً داخل المدن المسيحية أجابوا بأن هذا سهل عليهم خصوصاً وأنهم لا يجدون ما يقومون به عادة في أي يوم وأنهم بالتالي يستطيعون الراحة في ذلك اليوم بالذات . وعليه يقول وينتروب في مذكراته : « كنا نعلمهم الوصايا العشر وكانوا يتقبلونها بحرية ثم جرت حفلة قبولهم رسمياً وأدخلوا إلى الكنيسة ... فأعطت الكنيسة كل واحد منهم ثوباً من القماش وقدمت لهم وجبة غذاء وقدحاً من النبيذ لكل من كان يرافقهم ... وبعدها استأذنوا بالانصراف وذهبوا ... »

وسار الزورق ينزلق على المياه وأنا غارق في تفكيري وكنا على وشك الدخول في حدود ولاية نيوهامبيشاير القريبة من مياه النهر المشكلة من روافد الأنهر المتعددة الجارية وسط الأودية ... فالنهر هو المفتاح الوحيد الذي يفك عقدة الحيرة ويوضح معالم التلال والأودية ، والبحيرات والمجاري المتشابكة . فالمريماك أو نهر ستورجون يشكل من التقاء مصبي بيميجبواست والوينيبسوكي . ويسيران بعد التقائهما مسافة تبلغ ٧٨ ميلاً جنوباً إلى ماساشوسش ومن هناك يسيران شرقاً مسافة ٣٥ ميلاً حتى يصلا إلى البحر . وقد توصلت بنفسي إلى معرفة نبعه والمكان الذي تتصاعد منه المياه من بين الصخور الجبلية البيضاء القائمة فوق الغيوم ... لغاية ان يصب في البحر على الشاطئ القريب

من جزيرة بلوم .

في البدء ... تسير المياه هادرة إلى سفح الجبال حاملة معها بعض جذوع الأشجار كما أنها تمتص بمسيرها أريج بعض الأعشاب البرية التي ترافقها في طريقها طافية إلى حيث تصبّ في المحيط آخر الأمر .

إن زورقنا يطفو الآن في المكان الذي تتقابل فيه بحيرات نيوفاوند وسكوام ووينيبيسوكي وكذلك مياه الثلج الذائب على قمة الجبل الابيض ... وهنا أيضاً تلتقي مياه أنهر سميث وبيكر وماد وساوثكوك وكونتكوكوك وبيسكاتاكواج وسانكوك وناشوا وسوهيجان التي انضمت إلى بعضها بعضاً وأخذت تسير متحدة هادرة دون هوادة لتصب في البحر.

يصبح النهر بين بلدتي اميسبوري ونيوبوري صالحاً للنقل التجاري إذ يبلغ عرضه هناك ما يزيد على الثلاثة أميال ولا يبقى أثر لضفافه الصفراوية المتشققة ... بينما تتراءى وراءه ظلال التلال العالية بقممها الخضراء . فقد مررت في هذا القسم من النهر راكباً زورقاً بخارياً ... وكم كان جميلاً منظر صيادي السمك من على ظهر الزورق ، وهم يلقون بشباكهم على طول الساحل . وفي بعض الأحيان يقابلك مركب محمل بالخشب يتجه جنوباً أو غرباً ، راسياً أو مشططاً بانتظار الريح أو المد حتى تنحدر أخيراً تحت جسر تشين المشهور وترابط في نيوبوريبورت . وهكذا أصبحت تلك المنطقة التي كانت تفتقر إلى المياه .. مكاناً

تملأه المياه من كثرة الروافد التي وصلت اليها من المرتفعات ...

ويمكنك امعان النظر في هذا النهر المترامي الاطراف من أبراج مدينة نيوبوريبورت ... حيث تلاحظ أيضاً الزوارق بأشرعتها البيضاء فيخيّل اليك انه بحر داخل في اليابسة .

ينبع نهر مريماك من أماكن متساوية الارتفاع لمنابع نهر كونكتيكوت ، الا ان نهر مريماك يسلك طريقه إلى البحر في خط يبلغ نصف طول الآخر ، وهكذا تكون الفرصة أمامه ضئيلة للمرور بالمروج الخضر كما يفعل نهر كونكتيكوت لأنه يسرع الخطى على طول المنحدرات والشلالات المتعددة التي تعجل وصول مياهه إلى البحر . أما ضفافه فانها عالية اجمالاً يتخللها منعطف قصير تصبح خلاله الضفاف منخفضة الأمر الذي يفيد منه الفلاحون كثيراً . . . ولدى وصوله إلى نقطة بين شلمزفورد وكونكورد يصبح عرضه ما بين عشرين إلى خمسة وعشرين ميلاً ... ومما يجعل النهر يبدو في هذا المكان أعرض منه في أية نقطة أخرى هو اتساع رقعة الارض المنبسطة هنا بعد قطع الاشجار منها ... وبالتالي نظراً لبوار التربة التي تشمل ضفافه ... ويمتد تأثير سد بوتاكيت لغاية شلالات كرومويل ويعتقد الكثيرون بأن الضفاف تنهار هناك باستمرار فيفيض النهر نتيجة لذلك . كما انه قابل

للطوف بسرعة شأنه شأن جميع الأنهر الواقعة في المنطقة .
ومن المعروف عن نهر بيميجيواست بأن المياه ترتفع إلى علو خمسة وعشرين قدماً في ساعات معدودة . والنهر صالح للملاحة التجارية إلى مسافة ٢٠ ميلاً للسفن الثقيلة ، اما للزوارق فلغاية كونكورد في كونكتيكوت في هامبشاير أي لمسافة ٧٥ ميلاً من مصبه ... وللزوارق الصغيرة جداً لغاية بليموث أي لمسافة مائة وثلاثين ميلاً .

ورغماً من عدم صلاحية النهر للأغراض التجارية نظراً للحاجز الرملي الكامن قرب مصبه ... فأنه – أي النهر – وضع نفسه في خدمة المنتجين منذ البداية ... انه ينبع بالقرب من منطقة فرانكونيا المشهورة بالحديد ويمرّ وسط الغابات الكثيفة وعروق لا تنضب من حجر الغرانيت ، ثم ينضم إلى مياه روافد بحيرات سكوام ووينيبيسوكي ونيوفاوند وماسابيسيك فتنحدر بعدئذ من فوق سلسلة من السدود الطبيعية إلى حيث كان يقدم خدماته لأجيال عديدة دون فائدة حتى وصل في النهاية الأميركيون وأخذوا يعملون على تحسين المياه . وإذا ما وقف المرء قرب مصبه وتطلع نحو منبعه فأنه ولا شك سيرى مدينة متألقة على مرتفع يموج بالاخضرار وزمرة من البشر تنهمك بالعمل قرب كل شلال . وبغَضّ النظر عمّا يجري في نيوبوريبورت وهافرهيل ، فانّ في كل من لورنس ولويل وناشوا ومانشستر وكونكورد مصنعاً يتألق مرتفعاً فوق الآخر . وعندما يمر نهائياً من تحت المصانع ..

يسير على أرض مبسوطة في طريقـة إلى البحر فتعود مياهه للضياع ولا يبقى لهـا أية قيمة سوى الشهـرة الملتصقة بالنهر .

وبدا سكون الهواء شفافاً رائعاً
جعل التلال والوديان وأشجار الغابة
تردد صدى الهمهمة الوقور.

كل شيء بدا رائعاً خلال هذه الرحلة الممتعة ... حتى الشعر لبس ثوباً في نظري أكثر جمالاً ورونقـاً مما اعتدت ان اراه عليه .. ومر في خاطري بيت من شعر فرجيل :

« اي والآن اخذت البراعم تتفتح فوق الجذوع المنتشية » .

وهل توجد متعة أجمل من ترديد الشعر في مثل هذه المناسبة .. وخصوصاً أشعار الوصف ... او عرف الناس كيف يقرأون لما قرأوا سوى الشعر .. فلا الفلسفة ولا علم التاريخ يستطيع أن يكون عوضاً عنه . لم تظهـر أعظم الحكم واجمل الفلسفات إلاّ في الشعر .. منثوراً كان أم منظوماً ! ولا يظن احدكم ان الشعر من ابداع الانسان أو خلقه .. بل انه ابن الطبيعة بل أقرب أبنائهـا اليها .. وليس الانسان في أعماله الرائعة إلا مترجماً لشعر الطبيعة .. اليس التاريخ كله سرداً منثوراً لاعمال الانسان

الشعرية ... استمع إلى هومر وهو يصف لك غروب الشمس فتشعر بالشمس تغيب أمامك في أجمل ألوانها السندسية .. او كأنك تسمع الطبيعة نفسها تتكلم ، بلغة بسيطة مفهومة تدخل قلب الطفل .. ولا يحتاج الكهل إلى التفكير مرتين لفهمها . انني أعتقد جازماً ان الشعر منحة الطبيعة الكبرى الينا فهي لا تقدم الينا الكلمات فحسب بل وتصفها في جمل متناسقة موزونة صهرت من معدنها وفي بوتقتها .

وما أقل الكتب التي تخلد على مر الايام . أما الألياذة فتبقى مشعة كالشمس بارقة كالأمل .. انني اشعر وأنا أطالعها وكأنها احتضنت جميع أشعة الشمس التي سطعت فوق آسيا عبر السنين .. وهي على قدمها ما زالت تقف في المقدمة وكأنها احدث انتاج للعقل البشري !... ألم تُدْرَس الاثار وتنهدم القلاع وتنمحي الدول ؟ ألم تسقط التماثيل محطمة ؟ ولكن الالياذة لا زالت حتى اليوم كما ستبقى إلى الابد ترسل حكمها لتمتزج مع شعاع الشمس الساقطة علينا ..

اين هومر .. الاله واين جوف
بل وأين المدن السبع الكبار
ذهبت كلها وبقيت تراتيل هومر
تتحدى الزمن والبروج والآلهة
بل كل ما في الارض ... عدا السماء .

ما أجمل أن نختار الكتب التي نطالعها .. فليست الكتب سوى المجتمع الذي نعيش به وفيه .. فعلينا ان ننتقي رفاقنا بحذر فنبتعد عن الاحصائيات وقصص الخرافة والانباء والتقارير والمجلات .. فهي لا تفيد أبداً فالحكمة في الانكباب على الشعر .. والشعر وحده .. ان الذكي الأريب هو الذي يقرأ الكتب الجيدة أولاً والا فلن يقرأها أبداً . لا تقرب الكتب السخيفة والا كنت كالمتعب الذي يريـد اغفاءة طويلة فالرجل القوي الصامد الذي يسعى ابداً نحو الينبوع نحو الاصل والاساس فلا يلجأ للروايات ومهازل الخرافة ، بل يواجه الافكار القوية العارمة التي تهز مشاعره وتحمله على التفكير المضني وليس كل ما ضمه غلافـان كتاب ... بل ان الكثير مما يطبع وينشر لا يمت بصلة إلى «الكتب» بل هو انتاج للتسلية .. وسيلة من وسائل التسلية الحديثة .. ولكنها وسائل خداعة .. قد تخدع العالم أو العبقري أو ذاك الذي يعرف كيف يقرأ فيشتريها ولكنـه لا يكاد يبدأ حتى يكتشف انه يقرأ ضالة لا نفع منها ...

لقد رخص ثمن الورق وبخس ، حتى بات المستكتبون يفلحون الادب ويحرثون حقله بدلاً من فلاحة أرض للبطاطا أو البصل .. ولبعض هؤلاء المستكتبين اقلام سيالة . لكنهم يكتبون للشهرة ليس إلاّ ، تماماً كما يزرع بعض المزارعين الشعير لا للعلف بل لتخميره من أجل صنع البيرة .. والبعض الآخر يكتب لأنه يظن ان الشعب يحتاج

إلى ما يكتبه .. ويكتب المؤرخون والطبيعيون وكأنهم كتبة في خدمة الرب استأجرهم لتسجيل املاكه في دفاترهم .. ومنهم يخرجون علي بروايات وقصص عن الخليقة جافة تخلو من أي ذكر للخالق أو تمجيد له .. والحقيقة انهم يعلمون الناس مبادىء الجهل لا مبادئ المعرفة .. فهناك هوة عميقة بين الجهل والمعرفة لا تستطيع العلوم الحديثة بناء الجسور الموصلة فوقها .. اني أرى أن واجب الكتاب الاول والاهم ان يأتينا باكتشافات جديدة ، اكتشافات تهزنا ولو تمت على يد بحارة تحطمت سفينتهم . أما أن يأتي الكتاب ومؤلفوه على وصف فنون الملاحة دون أن يكونوا قد رأوا اليهم أبداً فهذا هراء في هراء وباطل .. وبكلمة موجزة على الكتاب ان لا ينتج قمحاً وبطاطا .. بل يقدم لنا حصاد تجارب حياة المؤلف وخلاصة روحه ونفسه .

أنا لا أعتقد ان باستطاعتنا ان نتعلم شيئاً من كتاب الثقافة بل نتعلم من الكتب الانسانية ، ومن سير حياة العظام المخلصين .

وأنا لا أقصد هنا الناس الطيبين بل الجبابرة الكبار .. الذين لا يذرفون جل دموعهم من أجل الشعب .. بل يمتلكون من الدماء والدموع ما يكفي لغسل جراح الشعب وشفائها رجال كعود القصب مليء بالسائل الحلو لا كالكرمة إذا شذبت في الربيع ، امتنعت عن العطاء نازفة دماءها

لكي تضمد جراح التشذيب ... وكذلك الشاعر اريده حياً يعيش على شحمه طوال الصيف لا كالطفيليات تعيش على سرقة الغذاء من غيرها ! ولا كالصقور الجائعة دائماً تقتنص عصفوراً ضعيفاً بين الحين والآخر .

كثر الكلام في هذه الايام عن سلاسة الاسلوب في الكتابة العصرية .. وانتقد بعضهم كبار فلاسفة الاجيال بقولهم « لفلان أفكار عظيمة » أما أسلوبه .. فجاف خشن .. ليس به نعومة !

أينسى اولئك الناس ان النعومة لا تكون إلا بالانحدار ألم يلاحظوا ان سرعة انزلاقهم فوق الماء تزداد كلما زاد الانحدار .. أيريدون اذن اسلوباً ينحدر بهم .. وبسرعة .. إلى أسفل .. دعهم ينعمون في زورقهم المنحدر فوق سطح الماء من أعلى إلى أسفل حتى يصلوا إلى مصب النهر ويدخل زورقهم الصغير الناعم إلى خضم مياه المحيط المتلاطمة .. كلا لن يستطيع زورقهم المضي .. وسيلحظون ان امواج المحيط .. مهما ارتفعت نحو النجوم أو انخفضت نحو الاعماق هي هي من ذات المحيط .. اوليست قمم سلاسل الجبال في عين الناظر من بعيد قمم للسلسلة ذاتها ؟

الحقيقة ان الجملة « الكاملة » لا وجود لها ابداً ففي معظم الحالات نفقد شذى الفكرة وعبيرها عندما تترجم إلى كلمات ... وأجمل الكلام ما اقترب بقدر الامكان من تصوير الفكرة كما تتراءى في مخيلة الفنان أو عقل الحكيم ..

ومن أعظم الكتاب في ظني هو سير ولتر رالي لفخـامة أسلوبه الذي تشعر وكأن نفساً من روحه يختلج من بـين السطور هذا النفس الذي لا تشعر به عند كتّاب اليوم ... لقد امتاز كتّاب ذلك العهد بالقوة وصدق العاطفة وقربهم من الطبيعة .. فما وقعت على قول من أقوالهم أو عبارة من عباراتهم يستشهد بها كاتب حديث إلاّ وشعرت وكأنني وقعت على أرض أكثر اخضراراً وأخصب تربة مماحولها . بل ويتراءى لي انني ارى غصناً أخضر قد مدد على طول الصفحة فانعش فؤادي كما تنعش الاعشاب الرطبة أعصاب المتعب حين يرتمي عليها في أوائل الربيع .

أين عشت وكيف عشت

يأتي على الانسان حين من الدهر يعتاد فيه النظر إلى كل بقعة من الارض واعتبارها مكاناً صالحاً ليشيد عليها بيته .. وهكذا جبت جوانب المنطقة المحيطة بالمكان الذي كنت أعيش فيه وإلى أبعاد تجاوزت الاثني عشرة ميلاً .. واشتريت بخيالي وتصوراتي كل المزارع على التوالي ، فقد كان معظمها معروضاً للبيع فعلاً وكنت أعرف أسعارها . وكثيراً ما دخلت أرض كل مزارع وذقت تفاحه البرّي وتجاذبت أحاديث الزراعة معه وناقشته سعر الارض ... ورهنتها في ذهني ، بل وكثيراً ما كنت افلحها أيضاً في الخيال وأحصد نتاجها .. ثم أعود وأنسحب من الحديث بعد أن أكون قد شبعت منه ، وقد جعلتني هذه الهواية أبدو كسمسار ناجح للعقارات في مخيلة أصدقائي .. وكنت

أتصور نفسي أعيش حيثما يحدث أن أجلس ... وعلى كل حال أليس البيت مستقراً ؟! ولكم اكتشفت مواقع تصلح لأجمل البيوت ولم يكن أحد قد التفت اليها بعد .. ولربما قال قائل انها بعيدة عن القرية بينما كان الامر يبدو لي أن القرية هي البعيدة عنها ! وكنت أقول آه ... هنا سأعيش .. وفعلاً عشت هناك .. لساعة .. تساوي صيفاً وشتاء . أترى الآن كيف أعبر السنين ، وكيف أدع الشتاء يمرّ بسرعة لأصل إلى الربيع .. لسكان هذه المقاطعة في المستقبل أن يتأكدوا أينما أقاموا أو شيدوا انهم لم يكونوا الأولين فلقد سبقتهم .. وتوقعت بعين الخيال كل ما سيفعلون .

إن ساعات بعد الظهر كانت تكفي لي لأن أحول المكان إلى حديقة غناء وغابات عالية ومراعٍ شاسعة .. بل وكانت تكفي لتقرير أي اشجار الصنوبر يجب أن تترك بقرب مدخل الدار وأي الزوايا أكثر ملاءمة لمشاهدتها في أتم ابهتها وجمالها .. ثم أترك هكذا الصورة. فثروة الانسان تتساوى طردياً مع عدد الأشياء التي تستطيع التخلي عنها !

ولكم حملني خيالي بعيداً حتى كنت أتصور بعض المزارعين يرفضون بيع مزارعهم لي . وكان الرفض دائماً هو ما أريد .. وإلا فكيف كنت أفلت في النهاية .. والحقيقة انني لم أحرق أصابعي بالامتلاك الفعلي أبداً .. وكان أقرب حادث للامتلاك الفعلي عندما اشتريت مزرعة

« هولويل » وأخذت أصنف البذور وأجمع المواد اللازمة لبناء عربة نقل لحملها ولكن قبل ان يبارك لي المزارع بالصفقة ويناولني حجتها جاءت زوجته — ولكل رجل زوجة كهذه — وغيّرت رأيها وأبدت رغبتها في الاحتفاظ بالمزرعة .. وسرعان ما تحمّس الزوج وعرض عليّ ١٠ دولارات مقابل فكه من ارتباطه .. والحقيقة أنني لم أكن أملك ساعتئذ سوى ١٠ سنتات فجاء عرضه وقلب حسابي رأساً على عقب فلم أعد أدري أمعي ١٠ سنتات أم ١٠ دولارات أم مزرعة كاملة بحبوبها وعربتها .. على أية حال تركت الرجل يحتفظ بالدولارات العشرة والمزرعة، أو بمعنى آخر لقد بعته المزرعة بالثمن الذي اشتريتها منه ومنحته فوق ذلك ١٠ دولارات فلم يكن رجلاً غنياً .. ومع كل ذلك احتفظت بسنتاتي العشر وبذوري وبضع خشبات لبناء عربة ... وهكذا شعرت انني كنت غنيّاً وكريماً في آن واحد ودون أن أسبب أي ضرر لفقري .. واحتفظت فوق ذلك بمناظر الارض الطيبة تلك المناظر التي كنت أحمل حصادها دون حاجة إلى عربة .

فأنا ملك متوّج على كل ما أرى
وليس هناك من ينازعني على سلطاني

وكم شاعراً شاهدت ينسحب من المزرعة والمزارع الخشن مندهش بهذا الرجل الذي ذهب ولم يذق سوى بضع

تفاحات بريّة بينما يكون الشاعر قد حلب المزرعة بخياله وخضها وانتزع زبدتها ولم يترك للمزارع سوى السائل الابيض ... لا شيء .

وأكثر ما كان يعجبني في مزرعة هولويل عزلتها التامة فهي على بعد ميلين من القرية وميل من أقرب جار ، ويفصلها عن الشارع العام حقل شاسع ، أما جهتها الخلفية فيحدّها نهر ، قال المزارع عنه انه يحمي بضبابه المزروعات من أضرار الصقيع في الشتاء .. ورغم أن هذه الخدمة التي كان النهر يؤديها لم تكن لتهمني كثيراً أو قليلاً إلا أن ذكر النهر أثار في خاطري ذكريات جميلة عن عهود سابقة .. عهود الصبا .. يوم كنت أصعد اعالي النهر فأشاهد بيت المزرعة القديم تحيط به الاشجار الشامخة من كل صوب وحدب .

وكنت متعجلاً شراء المزرعة ... وخصوصاً انني علمت ان المزارع يعتزم اقتلاع بعض الاشجار التي امتلأت جذوعها بالتجاويف بسبب الهرم .. ونزع بعض الصخور لزيادة اكتساب المزيد من التربة .. وكذلك حرق شجيرات العليق التي أخذت تظهر في قسم المراعي ... وكنت اريد المزرعة كما هي دون «تحسينات» المزارع وكنت من أجل امتاع نظري بتلك المزايا ، على استعداد لأن أشتري فوراً أو بالأحرى ان أحمل السلم بالعرض كما حمل الـه الاغريق أطلس الدنيا على كتفيه – ترى ماذا استفاد اطلس من

ذلك – لقد كنت متأكداً من ان المزرعة بحالتها الحاضرة آنذاك ستعطي أجمل المحاصيل التي ارغب بها .. ومن ثم قررت أنّ أحسن وسيلة لحصاد ما أريد منها هو أن أتركها على حالها وان أتخلى على شرائها .. ولم أكن أملك شيئاً من وسائل الزراعة سوى بعض البذور التي جئت على ذكرها .. ولكم سمعت ان البذور القديمة خير من الحديثة لأن الزمن يميز بين الصالح والطالح فتبقي الصالح وتهبك الطالح .. وربما كان هذا صحيحاً .. وهنا دعوني أقول لرفاقي مرّة أخيرة « عش حراً طليقاً » اطول ما تستطيع ولا تتقيّد بشيء ، فلا فرق إذا كان القيد قيد مزرعة أو قيد السجن . ولقد قال « كاتو » :

« عندما تقدم على شراء مزرعة فقرّر أن لا تشتري متسرّعاً بل انظر اليها جيداً ولا بأس من أن تدور حولها مرة ومرتين .. بل كلما ذهبت اليها زائراً ازددت ولعاً بها » .

وهكذا انا .. قرّرت أن لا أشتري بل أكتفي باللف والدوران حولها طوال حياتي وان أدفن فيها لكي يكتمل مروري بها أخيراً .

والآن سأصف لكم تجربتي الجديدة .. ولكنني لن اكتب قصيدة حزن عنها ، بل سأظل أصيح كالديك في الصباح أملاً بأن أوقظ جيراني على الاقل .

فعندما سكنت الغابة ، أي عندما بدأت أقضي ليلي

هناك بالاضافة إلى سحابة النهار .. وكان ذلك في يوم عيد الاستقلال الرابع من تموز عام ١٨٤٥ ، لم يكن بيتي الشتوي جاهزاً بعد ، فلم يكن أكثر من ملجأ يعصمني زمهرير الشتاء وقارس البرد ، دون أن يكون فيه مدفأة أو له مدخنة كما كانت ألواح الخشب الخشنة بارزة من الجدران والسقوف . اما الابواب والنوافذ فكانت معدة إعداداً صالحاً حسناً وكانت ألوانها البيضاء والفضية تضفي على المكان جوّاً من النظافة والحنان .. وخاصة في الصباح وقد علقت حبيبات الندى على أطراف الخشب المشبع بالرطوبة . وكان منظر قطرات الندى وأريج خشب السنديان الرطب يذكراني طوال النهار بكوخ صغير يقبع على قمة التل ، كنت قد زرته قبل سنة ووجدته يصلح لاستضافة إلـه مسافر التقى باحدى ربات الجمال وهي تنسج فيه خيوطاً ذهبية لثوبها ... وكانت نسمات الهواء تعبر شقوق الكوخ آتية من فوق التلال محملة بانغام موسيقى السماء ... ان أناشيد الكون لا تنقطع ولكن ما أقل الآذان التي تسمعها .

وهكذا ، ورغم كل شيء ، صار لي مكان الجأ اليه في هذا الكون إذ لم أكن أملك قبل هذا البيت سوى خيمة أضربها حيث أشاء خلال رحلاتي الصيفية .. وما زالت ملفوفة تقبع في قبو البيت. وأقرب وصف لبيتي الجديد هذا هو قولي انه يشبه مسودة صورة لم تكتمل بعد .. انه هيكل بيت لم يكتمل كساؤه بعد .. وكان الهواء في داخله

بعذوبته ونقاوته يشبه الهواء في العراء .

قال هاريغانتزا «البيت دون طيور كاللحم دون مرق» ولم يكن هذا القول لينطبق على بيتي فقد كانت الطيور قريبة مني . ولم يأتِ ذلك عن طريق سجني لأحدهما في قفص بل لأنني سجنت نفسي بقربها .

وكان هذا العشّ الجميل الذي سجنت نفسي به يقع على شاطئ بحيرة صغيرة على بعد ميل ونصف إلى الجنوب من قرية كونكورد ، وكانت الغابة الكثيفة تحتضن بيتي هذا من جميع جوانبه وتمتد محيطة بالبحيرة حتى أن خط الاشجار الباسقة على الشاطئ المقابل من البحيرة كان هو أبعد ما تستطيع عيناي رؤياه وكانت البحيرة نفسها والبيت والغابة على مرتفع من الارض يجعل الناظر اليها لا يرى سوى الماء والاشجار والسماء فقد كان قعر بحيرتي يرتفع عن سطح مياه البحيرات الاخرى الغربية .. وفي المساء كان الضباب ينسحب من على سطحها رويداً رويداً كالأشباح تتسلل بين أشجار الغابة حتى تتلاشى تماماً فيبدو سطحها كمرآة مصقولة تنعكس عليها نجوم السماء .. وما كان أجملها من بحيرة بعد انقضاء زوبعة ماطرة إذا كانت تبدو في فترة الهدوء الذي يعقب المطر والغيوم الرقيقة تتلاشى على سطحها وقد أخذت مياهها تعكس الانوار الخافتة من حولها .. وكأنها سماء ثانية .. أهم بالنسبة لي بل وأكثر نفعاً من الأولى .

ومن تلة مرتفعة في الجوار كان الناظر يشاهد منظراً

خلاباً إذ كان هناك جبلان متقابلان يسيران نحو الافق على خطين متوازيين . وكان سفحاهما المتقابلان ينحدران بتناسق حتى يتراءى للناظر ان هناك في مقر الوادي حيث يلتقيان جدولاً أخضر يهدر نحو الجنوب .. بينما لا نهر هنـاك البتة ! وكم كنت أقف هناك الساعات ، أطيل النظر إلى ذلك الجدول غير الموجود واستمع إلى خرير مياهه وهي تندفع نزولاً نحو الغرب .. وكنت إذا رفعت نفسي على رؤوس أصابع قدمي أشاهد قمم الجبال العالية البعيدة إلى الجنوب وهي تتوهّج تحت أشعّة الشمس وتتماوج عليها الألوان .. الازرق والارجواني وهكذا كأنها دنانير ذهبية صُكت في مسابك في السماء . أما من الجهات الاخرى فكان يستحيل عليّ أن أشاهد أكثر من صفوف أشجار الغابة المتراصة .

ما أجمل أن يكون بقربك بعض الماء . فقيمة البحر الصغيرة انها تذكّرك بخفة الارض وأنها جزيرة عائمة لا كتلة متراصة ثابتة .

ورغم أن بيتي كان محاطاً كما أسلفت بالحيرة والغـابة الكثيفة فلم أشعر بضيق أو اختناق ، فقد كان يتخلّل الغابة في بعض نواحيها مروج شاسعة تكفي لاطلاق خيالي من عقاله .

قال دامودورا : « ما أسعد اولئك الناس الذين حبتهم الطبيعة منظاراً ذا أفق بعيد » .

يمرّ الزمان والمكان الآن بتغيرات عميقة الجذور ولقد عشت بقرب تلك الامكنة من العالم وتلك الازمنة الـتي أثارت اهتمامي وكانت موضع تفضيل عندي .. ولقد كان المكان الذي عشت فيه بعيداً كبعد تلك الامكنة التي يتطلع اليها الفلكيون بمناظيرهم .. فنحن البشر نميل إلى التطلع نحو أماكن بعيدة .. خلف الافلاك السماوية فنتصوّرها انها تنعم بالهدوء والسكينة .. ولقد اكتشفت أن بيتي قائم على مثل تلك العوالم المتناهية في البعد .. فاذا كانت السكنى في قمر يدور حول زحل أو المريخ .. فلقد كنت أنا دون شك ، أسكن في مكان مشابه لها أو على أقل تقدير في مكان يبعد عن ضجيج الحياة بعد تلك الاجرام ...

كالراعي على سفح الجبال
تعلو به الافكار
علو القمم التي ترعى فوقها
قطعانه

هكذا كانت أفكاري .. تعلو وترتفع مع قمم الجبال المحيطة بي ، وكان كل صباح دعوة لجعل حياتي بسيطة كبساطته ، حلوة كعذوبته ، بريئة كنقاوته .. ولا عجب فلقد اندمجت مع الطبيعة ذاتها .. آه كم كنت اعبد فجر الصباح كالاغريق .. فعند طلوع كل فجر كنت أقفز لأستحم في البحيرة .. وكان هذا العمل بالنسبة لي كفرض ديني

أنفذه بكل حماس وخشوع . اولم يقل ان حمام الملك تشانغ تانغ كان يحمل العبارة التالية محفورة على بلاطه :
« جدد نفسك تماماً كل صباح .. كل صباح وإلى الأبد »

ولقد عرفت أيضاً أن الصباح يعيد إلى الذاكرة عهود البطولة .. ولكم تأثرت لصوت البعوضة في الصباح وهي تئز وتطن هائمة بين الابواب المشرعة وكأنها الالياذة والأوديسا تعيد على مسامعي عجائب مغامراتها وتصب جام غضبها .. وكأنها تذكار دائم عن قوة الكون وخصبه .. اليس الصباح هو فصل الربيع بالنسبة للنهار .. ساعة اليقظة ، حيث نستيقظ بكامل وعينا مصحوبين بموسيقى السماء وأصوات الطبيعة بدلاً من أجراس المصانع تنهرنا وتدعونا للقيام بخدمتها . « ان من لم يصدق ان الصباح يحمل معه ساعة أبكر وأجمل وأقدس مما اعتاد عليه الانسان فَقَدَ إيمانه بالحياة وغمر صدره اليأس وأخذ ينحدر على طريق الهلاك المظلم . »

انني أؤمن ان جميع الاحداث العظام تبدأ مع الفجر وفي جو الصباح . قال فيداس « يستيقظ الذكاء .. كل الذكاء .. في الصباح الباكر » فالشعر والفن وأعظم المنجزات تبدأ في تلك الساعات . بل ان جميع الشعراء والابطال وآلهة الموسيقى هم أطفال الفجر ، يطلقون موسيقاهم مع طلوع الغزالة ... واولئك الذين يصحون مع طلوع الشمس يبقى النهار صباحاً لهم مهما كانت الساعة أو مهما لقوا من

عناء من مواقف الانسان .

أنا أعتقد ان « الاصلاح الخلقي ليس الا محاولة للتغلب على النوم » فما أكثر ما يستطيع ان يحققه الانسان لولا انه يترك النعاس يتغلب عليه . فالملايين من الناس يقظون جسدياً للقيام بمهمات جسدية ولكن واحداً بالمليون منهم متيقظ للعمل الفكري وواحد فقط من كل مئة مليون لحياة الشعر والسمو الالهي .

فاليقظة هي الحياة .. ولم أجد للآن رجلاً يقظاً تماماً .. آه لو لقيته ، تُرى كيف كنت أنظر اليه ؟ !

نعم علينا أن نتعلم كيف نصحو .. وكيف نحتفظ بيقظتنا .. لا بطرق ميكانيكية بل بأن نظل دوماً نسعى وراء الفجر فأنا لا أشك بقدرة الانسان على رفع نفسه والسموّ بروحه بالجهد الواعي . ما أجمل ان يستطيع الانسان ان يحوّل الحجر الاصم إلى تمثال جميل أو ان يخلط بضعة الوان لاخراج صورة زاهية ، ولكن الاروع من ذلك ان يحفر أو يرسم الجو والوسط التي نرى من خلاله .. ولا يمكننا فعل ذلك الا بالاخلاق .. فما اجمل ان يجعل الانسان حياته .. بكل تفاصيلها جديرة بان تصمد لاصعب ساعات النقد .

لقد أويت إلى الغابة لأنني قصدت ان احيا وان أواجه الحقائق الأساسية للحياة محاولاً ان أتعلم منها ما تحمله لي من معارف وعلوم وذلك لكي لا اكشف وانا على سرير

الموت انني لم أحيَ .. ولم تكن رغبتي بأن أحيا إلا الحياة الحقيقية .. فالحياة عزيزة جداً .. كما لم أرغب بالانزواء مستسلماً ما لم يكن الاستسلام ضرورياً .. بل اردت أن أعيش بعمق وأن أمتص الرحيق كل الرحيق الذي قد تقدمه لي الحياة ، ورغبت بأن أعيش عيشة اسبارطية مجردة لكي اتخلص من كل التفاصيل التي لم أر أنها من لب الحياة : نعم لقد اردت أن أحصر الحياة كلها في زاوية وان اعصرها مجرداً اياها من كل زيف لكي أصل إلى جوهرها البسيط : فاذا حدث واكتشفت ان الجوهر كان فارهاً فسأكشفه إذاً للعالم .. أما إذا وجدته رفيعاً نبيلاً فسألمسه ساعتئذ بأناملي وأحسه بأحساسي لكي اصفه بصدق للناس ... إذ يبدو لي ان العالم كله في حيرة من أمر هذا الجوهر . جوهر الحياة .. أهو الله أم ترى الشيطان .. ويبدوانهم فروا مذعورين واحتموا خلف استنتاج تصوره بسرعة ، وقالوا: ان هدف الانسان الأعلى هو تمجيد الرب إلى أبد الآبدين.

نعم لا زلنا نعيش بحقارة كالنمل رغم ان الخرافات تؤكد لنا اننا أصبحنا رجالاً منذ أمد بعيد .. انه خطأ في خطأ وباطل فوق باطل تضيع فيه حياتنا في التفاصيل والقشور ، فالرجل الشريف لا يحتاج للغموض ولا للعد على أكثر من أصابع يديه وفي اسوأ الحالات له أن يستعمل أصابع قدميه . اني اصرخ .. البساطة .. البساطة .. دعوا أموركم تكون ببساطة اثنين .. ثلاثة لا المئات والالوف :

فبدلاً من الملايين عدّوا لنصف الدزينة واجعلوا سجلاتكم بحجم ظفر الابهام . هكذا يجب أن يكون شعارنا في خضم هذا البحر الهائج الذي نسمّيه الحياة ان اردنا النجاة وعدم الاستمرار بالانحدار حتى القعر . اختصروا .. اختصروا ولتكن وجبات طعامكم واحدة بدلاً من ثلاث في اليوم .. وعدد صحونكم خمسة بدلاً من مئة .. ثم اختصروا باقي اموركم بنفس النسبة لقد أصبحت حياتنا كاتحاد الجمهوريات الالمانية (في القرن التاسع عشر) ثوباً مهلهلا غطت معالمه الخرق التي تشابكت حدودها ، فلم يعد يعرف أحد أين حدود هذه الولاية من تلك ، وضاع الالماني الفرد في هذه المعميات السائبة المتغيرة دوماً .. حتى أصبحت الدولة نفسها بالرغم من الاصلاحات الداخلية التي هي في الحقيقة اصلاحات خارجية سطحية ، مؤسسة متضخمة .. تملأ قطع الأثاث دهاليزها وتحيطها الفخاخ من كل صوب .. ولا يعمل بها فخرا سوى الرفاهية الكاذبة والمظاهر الفارغة الباهظة التكاليف .. مثلها مثل العائلة الغارقة بالديون والحل الوحيد لها كالحل الوحيد المتوفر أمام مثل هذه العائلة البائسة يكمن في الاقتصاد القاسي .. أي بساطة الحياة الاسبارطية مع علو الهدف .

يعتقد الانسان ان علينا ان نتاجر على مجال واسع وان نتحدث عن طريق البرق والهاتف وان نركب مسافة ٣٠ ميلاً لكي نصل الى أعمالنا .. أما قضية اذا كان علينا ان

نحيا كسعادين أم كرجال فأمر فيه نظر ! ويتساءل هؤلاء الناس : ولكننا ان لم ننهض لبناء الطرق ومدّ السكك الحديدية فمن يبنيها لنا ؟ واذا لم تبن الطرق ولم تمد السكك الحديدية فكيف نصل الى السماء في الوقت المناسب والموسم الملائم ؟! والحقيقة اننا لو بقينا في بيوتنا واعتنينا بأنفسنا فمن يحتاج الى السكك الحديدية ؟! اننا لا نركب القطارات بل هي التي تركبنا . اذ هل سبق وفكرت بمن يكون أولئك النائمون الذين يركدون تحت قضبان السكك الحديدية انهم رجال ايرلنديون وامير كيون والخطوط تستقيم فوقهم، وهم مغطّون بالرمال ، والمركبات تجري فوقهم .. فوق سواعدهم . فوق انتاجهم !

تُرى لمَ كُتب علينا أن نعيش بهذه السرعة وضياع الحياة ؟ يبدو اننا نقتل أنفسنا جوعاً قبل ان نجوع .ويقول بعض الناس درهم وقاية خير من قنطار علاج ولكننا نصرف آلاف القناطير اليوم لنوفّر بضعة دراهم غداً .

أما عن الأعمال فلسنا نقوم بأي عمل ذي قيمة .. لو انني فقط أقوم وأقرع الجرس للكنيسة معلناً حدوث حريق لما بقي طفل أو رجل أو امرأة في الجوار الا وجرى آتياً .. حتّى أولئك الذين كانوا يدعون طوال الصباح اللهم لا يستطيعون ترك أعمالهم لأهميتها لا ليطفئوا النار وينقذوا العقار بل ليشاهدوا النيران تأتي عليه ، هذا اذا اعترفنا بحقيقة مشاعرنا .

لا يكاد الواحد منا يستيقظ بعد غفوة ساعة من الزمن حتى يرفع رأسه سائلاً « ما هي الاخبار ؟ » فاذا لم يجد ما يروي غليله أخذ يروي الأحداث التي راودته في الحكم لقد أصبح تنسم الأخبار ومتابعة الأنباء لازماً لزوم طعام الافطار .

« أرجوكم .. أخبروني ما هي الانباء .. ماذا حدث لأي كان في أي صقع كان ! » أنا لا أهتم بمصلحة البريد واستطيع الاستمرار بالعيش دونها .. والحقيقة اني لم أستلم طوال حياتي شيئاً عن طريق البريد سوى رسالة أو رسالتين والحقيقة ان البريد قلما ينقل أي شيء ذي قيمة وكذلك الصحف التي لا أذكر اني قرأت فيها خبراً له أهمية .. واذا صدف وقرأنا فيها نبأ مقتل كلب مسعور أو هلاك بقرة ضالة على خطوط قطار ببنسلفانيا أو حتى نبأ غرق سفينة أو انفجار مرجل ، ففي هذا الكفاية وليس ثمة حاجة لتكرار النبأ ، ان الفيلسوف لا يهتم سوى بالمبادىء أما التفاصيل فهي عنده ثرثرة فارغة تليق بالعجائز الشمط فقط . ولكن الناس لا تصدق قولي وتندفع بهياج وحماس بالغ لتلقط الاخبار . وقد حدث ان رأيت قبل أيام جموعاً غفيرة منهم تندفع مستهجنة نحو مكتب احدى الصحف لتلقي آخر الانباء عن حادث وقع في اسبانيا ، وقد وصل هياجهم وهم بانتظار صدور الطبعة الاخيرة من الصحيفة لدرجة ان حطموا زجاج نوافذ المكتب .. يا لهم من مجانين

اذ ان باستطاعة كل من يعرف شيئاً عن أوضاع اسبانيا في ذلك العهد ويحيط ببعض المعلومات عن دون كارلوس والانفنتا ودون بيدرو ومدينة اشبيلية وغرناطة ، نعم باستطاعة كل من يعرف شيئاً عن ذلك ان يرسم صورة واضحة لتقدم ، أو بالأحرى ، لتؤخر الاحداث الجارية هناك بل وان يتنبأ بما سيحدث في المستقبل بدقة تامة .. أما عن بريطانيا فآخر نبأ هام نشر عنها ويستحق المطالعة كان ثورة عام ١٦٤٩ ... ويكفي اللبيب ان يلم لسنة واحدة فقط باحداث الثورة وما جنته لكي ينسى الموضوع كله أو يتركه في عقله الباطن دون حاجة لمتابعة ما سيحدث .. لان ما سيحدث أصبح مرسوماً ومعلوماً سلفاً ، الا للذين يحبون الغيبة والقيل والقال .

أرسل ملك مقاطعة وي الصينية مندوباً عنه الى الفيلسوف نونغ تسو ليلتقط أخباره .. وهناك في بيت الفيلسوف أمر تسو المندوب بالجلوس قربه وبادره الحديث بسؤاله عن أخبار مليكه وعما يفعل فما كان من المندوب الاديب الا ان قال :

« ان مليكي يرغب بانقاص عدد اخطائه ولكنه ينجح بحصرها . . »

وبعد ان خرج المندوب صاح الفيلسوف : « يا له من مندوب مخلص .. يا له من مندوب »

أما عندنا فالواعظ يقف ليؤذي آذان المستمعين في يوم

الأحد .. يوم عطلة الاسبوع والراحة بمواعظه المملّة بدلاً من ان يصرخ بالجموع بصوت يقصف كالرعد : «قفوا تمهلوا .. لماذا تبدون مسرعين وانتم ابطأ من السلحفاة . »

تعتبر الأكاذيب حقائق ثابتة ، بينما تبدو الحقائق أكاذيب ألا ليت الناس تتمهّل وتنظر الى الحقائق .: لتحولت الدنيا الى عالم جميل يشبه أساطير الخيال .. فعندما تتمهل فقط وتتبصر الأمور ستجد ان التفاصيل لا تعيش وان الامور العظيمة فقط لها الوجود .. الوجود السرمدي الخالد . ان الاطفال .. الاطفال الذين يلعبون الحياة ويمضونها لهواً لأقرب الى طبيعتها وجوهرها من الرجال .. الذين يعتقدون ان التجارب ويقصدون سلاسل الفشل — قد جعلتهم أعقل وأكثر رزانة .

قرأت في كتاب هندوسي القصة التالية : « طرد ملك ابنا له غضب عليه وهو طفل .. فنشأ الطفل في الغابة على يدأ أحد العمال ولما اشتد ساعده وبلغ عداد الرجال اعتبر نفسه واحداً منهم وعاش عيشتهم الا ان اكتشفه أحد الوزراء واعلمه الحقيقة وكشف له عن أمره .. فاذا بطفل الغابة أمير كبير » ..

وهكذا نحن نقبل ما يبدو لنا حقيقة ونخضع للظروف حتى لنكاد ان ننسى ان الظواهر ليست بالضرورة هي الحقائق .. والناس تقدر الحق البعيد المختبىء هناك وراء النجوم .. الحق الذي كان قبل آدم وسيكون بعد آخر

الرجال ؛ ولكن هذا وَهْم فالحق موجود هنا .. الآن .. وفي هذه الازمان .. كما هو في كل الازمان .. فالله .. فالحق كامل من الازل والى الابد ... ولن يكون في آخر الازمان أجمل منه الآن .. فلماذا ننتظر .. ولماذا نخضع للواقع المغلوط .. ولا نعيش حياة النبل .. حياة الحق . بمعرفة الحقيقة فقط نستطيع ان نعرف اننا أمراء تماماً كما أخطأ معرفة قدره الطفل الامير حتى كشف له ستر الحقيقة مرشد نبيل .

ليتنا نحاول مرة ان نعيش على الطبيعة بعيداً عن المظاهر والضلال وأكاذيب التقاليد والعادات .. ليتنا ننجح بازالة أكوام الطقوس والمبهمات التي تراكمت علينا عبر السنين والقرون ، نعم ليتنا نحفر هذه التلال من القاذورات حتى نصل الى الصخر الصلب .. الى الحقيقة .. ومن هناك نبدأ بالصعود .. ولا يهمني ما ستكون الحقيقة .. ذاتها أو حتى ما ستكشف عنه .. فان كانت تشير الى الموت اي الى أننا لا شيء سوى فقاقيع عابرة مصيرها الفناء فلنقض ونحن واعون عارفون المصير .. وان أشارت الى أننا خالدون .. أمراء .. جزء من الله .. فما أجملها من حياة اذن .. نواجه فيه الشمس بشجاعة وكبرياء ونفتح لها قلوبنا لتدخل أشعتها الى أعماق نفوسنا .. أما الآن ودون الوصول

الى الحقيقة المطلقة فمن أنا ومن أكون .. انني لا أعرف العد ولا أول حرف في الابجدية .. انني لا أعرف شيئاً .. الا ليت بقي لي ذكائي يوم ولدت .. لقد كنت يومها أعقل مني الآن ، فقد كنت اقرب الى الحقيقة !

رسائل للمؤلف

١

عزيزي السيد بلاك ،

أتذكر والت ويتمن الشاعر الذي ذكرته لك في كتابي السابق .. لقد أصبح هذا الرجل شغلي الشاغل في هذه الايام .. لقد انتهيت منذ قليل فقط من قراءة المجلد الثاني من كتابه الذي أهدانيه .. لقد أفادتني هذه القراءة أكثر من أي قراءة أخرى منذ زمن بعيد .. ولربما كان أجمل ما قرأته له قصيدتيه « أمريكي » و « غروب » .. ولكن هناك قصيدة أو قصيدتين في الكتاب لم أعجب بهما فقد كانتا خاليتين من أيه فكرة سامية عن « الحب » .. لقد

بدتا لي وكأن وحوش الغابة تتكلم فيهما لا انسان له قلب. لقد تحول الحب فيهما الى شبق وشهوة حيوانية :: انني أعترف ان هناك الكثير من المواخير التي يمكن تلاوة مثل هاتين القصيدتين فيها بنجاح عظيم .. ولكنني لا أفخر أبداً بسكان مثل تلك الامكنة .. ومع هذا فدعني أؤكد لك انه حتى في هاتين القصيدتين كان صريحاً شجاعاً كأصرح ما يمكن ان يكونه عليه أمريكي بل وأشجع من أي كاتب حديث سمعت به .. وقد أكون مخطئاً في رأيي عن مدى الشهوة الجنسية البادية في الشعر .. فكثير من الرجال سيقرأونه دون فهم له أو ادراك لمعانيه .

وعلى وجه الاجمال كان الكتاب رائعاً شجاعاً ومعبراً عن الخلق الامريكي أصدق تعبير .. ولو جمعت كافة المواعظ والصلوات التي قيلت أو سُمِعَت في طول هذه البـلاد وعرضها لما فاقت ما جاء في هذا الكتاب ::

وفي الكتاب مجال واسع للفائدة فهو يقترح بين الحين والآخر أفكاراً أروع من الانسانية ذاتها ... فلا تستطيع ان تضعه على مستوى واحد مع سكان بروكلين أو نيويورك آه كم سيرتجفون فزعاً حين قراءته !

وكثيراً ما شعرت وانا أقرأ له انه يفرض رأيه علـي ويجعلني أشعر ببعض التحرر الذي يساعدني على رؤية ما يريد قوله .. وهو يضعني بصدق عاطفته وتصميماته التي تدل على عمق تفكيره على قمة تل أرى منه الاعاجيب ..

وبعض أشعاره جافة خشنة تلحظ بها بساطة فطرية تشبه صفارة الانذار أو نغمة مزمار صغير يرن في أرجاء المعسكر ليوقظ النيام ..

وقد لاحظت انه لا يفخر أو يدعي .. كما ان كتابه خلا من انعكاسات الانسانية الفردية .:. وهذا يدل على مدى ثقته في نفسه . وبكلمة أخيرة أقول :

يا له من شاعر فطحل وانسان عظيم !

المخلص

٢

صديقتي العزيزة ،

ما أكثر الأحاديث التي تركت معلقة بيننا دون ان تكتمل ، والآن أراني لا أدري من أين أمسك الخيط لاعادة وصلها .. ولكنني سأحاول قطع حبل السكوت : اني أفكر بك كشقيقة كبرى ما كان لي ان أتجنبها : فتأثيرك كتأثير ضوء القمر – يقاس عمره بقياس ضوئه . وأنت تمثلين في نظري المرأة المثالية .. فأنت لا تكذبين ولا تسلبين الغير . وهذه لعمري صفات نادرة ..

كم أنا شاكر لك تأثيرك عليّ خلال السنتين الحاليتين وكم أذكر ذلك التأثير برضى وبهجة .. ان التأثير الطيّب هو أنبل هدية يمكن ان تمنحها الآخرين .. لقد ساعدتني على الاحتفاظ بحياتي على مستوى عال من العزة والكرامة .

لقد كنت دوماً تنظرين اليّ من فوق .. من مكان مرتفع وهذه احدى تضحياتك أما أنا فقد كنت أكثر حظاً بك اذ كنت أنظر اليك من تحت .. وكان هذا الموقف

يفرض علي ضريبة محاولاً ان أكون عند حسن ظنك وان أرتفع الى الحدود التي تتوقعينها مني .. إذ هل هناك مصيبة أشد وقعاً على النفس من ان تشعر بأنها محترمة لشيء ليس فيها ؟!

لقد أحببتك بشكل جعلني أشعر بالفخر حتى عندما ابتعدتُ عنك .. وهل هناك شيء يجعل الأرض تتراءى لنا شاسعة واسعة أكثر من وجود أصدقاء لنا في أماكن بعيدة عنا ؟! انهم في الواقع خطوط الطول والعرض التي تحدد اتساع الدنيا في أنظارنا .

أقول إن عليك ان لا تعتقدي بأن القدر حالك السواد مظلم هناك ، حيث كنا فأنا أرى حتى في كونكورد خيطاً رفيعاً من النور .. ومن هنا على هذا البعد أستطيع تماماً ان أقدر قيمة شكوكك .. فان نورك الذي شبهته بنور القمر يسمح لوطاويط الشك والبوم بالحوم في ظلاله . ومع هذا فكم يسرني ان تتمكني من الارتفاع بحياتك حتى عن طريق الشكوك لانني أعتقد ان لا شيء يستطيع تعميق حياتنا سوى الايمان النهم الى المعرفة أبداً .. وما ايماني وشكوكك سوى تعبيران لنهم واحد .

انني أعيش الآن في جزيرة ستاتن .. ولكنني لا زلت أحنّ الى كونكورد ولا زلت أحمل ترابها ليس فقط في حذائي كما يفعل الرجل الذي يمنع من السكنى في أرض بريطانية فيعود وعلى حذائه تراب منها ، بل واحمله أيضاً

في قبعتي .. ألست في الواقع جبلة من تراب كونكورد والى ترابها سأعود ؟!

نعم ، انني أوافق على زواجك من السيد هوغ ، البستاني ، فقد يضفي على دنياك الطبيعية ظلالاً جميلة في احسن الحالات وقد يعصمك من الحاجة الى بيوت الصدقة والاحسان في أحسن الحالات .

كلا .. لم أزر بعد السيدة بلاك ولكنني سأفعل ذلك في القريب العاجل . وأخبري السيدة براون انني آمل ان تستمر في استخلاص السرور من قراءة الشعر وان لا يغيب عن نجمها الساطع ولو انه بات بعيداً عني وراء الافق والتلال : كما أرجو تبليغ عاطر تحياتي الى مدام أميرسون التي سأتشرف بالتطلع الى وجهها الباسم في الصيف القادم .. ثم اذكريني لباقي أفراد العائلة وبلغي تحية المساء عني الى الين . والآن استودعك الله ..

المخلص

فهرست

لمحة عن المؤلف	٥
مقدمة	٧
من اشعاره	١٣
العصيان المدني	١٥
حطام	٥٣
الاحد — يوم الرب	٦١
رحلة الى نهري كونكورد ومريماك	٦٣
اين عشت وكيف عشت	١١٠
رسائل للمؤلف	١٢٩